

الخصوصية الأندلسية وأصولها الجغرافية

تأليف

دكتور عبادة بن عبد الرحمن رضا كُحيلة
أستاذ التاريخ الإسلامى
كلية الآداب - جامعة القاهرة

الطبعة الأولى .

١٩٩٥



مركز للدراسات والبحوث الإنسانية والاجتماعية
EIH FOR HUMAN AND SOCIAL STUDIES



المستشارون

د . أحمد إبراهيم الهوارى

د . شوقي عبد القوى حبيب

د . على السيد على

د . قاسم عبده قاسم

مدير النشر: محمد عبد الرحمن عفيفى

تصميم الغلاف : محمد أبو طالب
الناشر : عين للدراسات والبحوث الانسانية والاجتماعية
٦ شارع يوسف فهمى - اسباتس - الهرم - ج.م.ع - تليفون : ٣٨٥١٢٧٦

Publisher: EYN FOR HUMAN AND SOCIAL STUDIES
6, Youssef Fahmy St., Spates - Elharan - A.R.E. Tel : 3851276

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

تقديم

للأندلس الإسلامية خصوصية حكمتها حقائق الجغرافيا ووقائع التاريخ . وقد طبعت هذه الخصوصية الحضارة العربية الإسلامية فى الأندلس بطابع خاص ؛ حقيقة أن وشائج القرى القوية ربطت الأندلس بالحضارة الأم ، فكانت الحضارة الأندلسية الإسلامية جزءاً عضوياً من الكل العربى الإسلامى ، بيد أن هذه الحقيقة لم تقف حائلاً دون بروز الطابع الأندلسى فى الفن والأدب والفلسفة ، مثلما تجلّى هذا الطابع الخاص واضحاً فى القسمات التاريخية على كافة الأصعدة والمستويات . وعلى الرغم من التشابك والتداخل المحير فى الشخصية الأندلسية فان هذه الدراسة التى نسجها بمهارة الدكتور عبادة عبد الرحمن كُحيلة قد نجحت فى أن تطوف بنا فى سياحة علمية شائقة فى ثنايا التاريخ الأندلسى ومنحنياته ومنعطفاته ، وقد اقتفى أثر نظرية الراحل العظيم الدكتور جمال حمدان فى نظريته المثيرة عن عبقرية المكان ، وقدم لنا دراسة سهلة وعميقة تستحق عن جدارة وصفها . بصفة «السهل الممتنع» . ففى أسلوب أدبى راق صب الدكتور عبادة مادته العلمية العميقة ؛ وجاء النتاج ممتعاً ومثيراً ومفيداً .

وتشعر «دار عين للدراسات» بالزهو وهى تقدم هذه الدراسة الصغيرة فى حجمها ، الكبيرة فى مبنائها ومعناها ، لتكشف للمسلمين والعرب صفحة طويت من صفحات أمجادهم فى الماضى الذى لم يكن بعيداً تماماً . لعل وعسى .

هذه الدراسة واحدة ضمن سلسلة «دراسات عين» التى أصبحت باقة من الدراسات المتميزة فى ميدان الدراسات الإنسانية والاجتماعية ، تقدمها للقارئ العربى الكريم لعلها تكون لبنة مفيدة فى بناء ثقافى جديد للأمة العربية التى تستحق ، بحكم تاريخها وإسهامها فى حضارة البشر ، حاضراً أفضل ومستقبلاً أحسن .

والله الموفق والمستعان .

الخصوصية الأندلسية وأصولها الجغرافية

تشارك الأندلس^(١) غيرها من الأقطار ، من حيث كونها جزءا من هذه الأقطار ومن حيث كون حضارتها جزءا من حضارة هذه الأقطار ، وهى الحضارة الإسلامية .

تأثرت الحضارة الإسلامية فى كل قطر إسلامى بخصوصية هذا القطر ، بحيث صار طابعها فى أحدها يفارق طابعها فى آخر ، على نحو أو آخر .

وحديثنا هنا عن الخصوصية الأندلسية ، هذه الخصوصية تفسر (أو تشارك فى تفسير) تميز الأندلس وتمايزها من ناحية ، وتفسر (أو تشارك فى تفسير) مأساتها من ناحية أخرى .

هذه الخصوصية لها أصولها ، ربما نوه بها فضلاء قبلنا^(٢) ، لكننا ننوه ببعض هذه الأصول ، وهى الأصول الجغرافية ، وغير خاف وطادة الصلة بين الجغرافية والتاريخ .

١- نعنئ بالأندلس هنا أسبانيا الإسلامية ، أى الأراضى التى خضعت من شبه الجزيرة الأيبيرية لسلطان المسلمين ، مع تفاوت السلطان بين عصر وآخر ، وفى حال الإشارة إلى الأندلس تخصيصا أى الأندلس الجغرافى ، نذكر السهل الأندلسى ، أما فى حال الإشارة إلى شبه الجزيرة بأسرها فنقول هسبانيا أو أسبانيا أو آيبيريا .

وثمة قضية جدلية ، شغل بها أجيال من علماء الجغرافية ، هي قضية الحتمية Determinism والإمكانية Possibilism ، ولسنا هنا بصدد مناقشة هذه القضية ، لكننا نقرر أن الجغرافية إذا لم تكن العنصر الفاعل ، فهى عنصر فاعل ، ويتنامى عمل هذه الفاعلية فى العصور السابقة لعصرنا الحديث ، باعتبار التنامى البطيء فى التكنولوجيا ، وهى خصيصة من خصائص العصور الوسطى .

وقد اهتم ابن خلدون (ت ٨٠٨هـ) ^(٢) بدراسة البيئة الجغرافية فى مقدمته ، وجعل الظواهر الاجتماعية نتيجة لهذه البيئة على نحو من الأنحاء ، كما جعل لها أثرا واضحا فى تمييز المجتمعات بعضها عن بعض .

وإذا كان المسلمون لدى مقدمهم إلى الأندلس قد اصطحبوا معهم وراء ثقافيا كان يهذب من الورااء الجغرافى ويحجبه أحيانا إلا أن هذا الورااء الثقافى لم يكن بقادر على أن ينهى دور الورااء الجغرافى ، الذى لا يلبث أن يتصاعد ، خصوصا فى أوقات الأزمات .

١- ومخاصة الأستاذ الفاضل أحمد مختار العبادى فى مقاله القيم " الاسلام فى أرض الأندلس أثر البيئة الأوربية " مجلة عالم الفكر م ١٠ ع ٢ ، ١٩٧٩م ص ص ٥٩ - ١١٠ .

٢- المقدمة . تحقيق على عبد الواحد وافى . القاهرة ، دار النهضة مصر ١٩٧٩ ج ١ ص ص ٢٤٠ - ٣٩٧ .

يتناول هذا البحث البيئة الأندلسية ، من حيث علاقتها بالخصوصية الأندلسية ، ونركز - بدءاً - على الجغرافية الطبيعية ^(١).

والحق أن الحديث عن جغرافية الأندلس مشكلة ، لأنه لا يوجد كتاب مستقل عنها ، بل إن المقدمات الجغرافية لبعض الكتب التاريخية مقتضبة ومحدودة ، وتتسم بالعمومية ، وتتسم أيضاً بمسحة رومانسية ^(٢).

-1-

هسبانيا Hispania - أو أسبانيا España - ثلاثة أشباه الجزر الكبيرة في بحر الروم ، وكانت في العصور القديمة تشغل موقعاً متطرفاً في نهاية المعمور من الأرض غرباً ، وانعزلت أو كادت أن تنعزل عن غيرها من الأقطار خارجها . وكان القسم الشرقي منه هو الذي يستقبل تيارات الحضارة والهجرة ، في حين كان انتقال هذه التيارات غرباً أمراً صعباً ، بسبب القلب الميت في الميسيتا La Meseta ، وبسبب الجبال

١- يدور هذا البحث حول محوري الموقع Situation والموضع Site وهو منهج

اقتبسناه من العالم الكبير جمال حمدان في كتابه الرائد "شخصية مصر" .

٢- راجع على سبيل المثال البكري : جغرافية الأندلس وأوروبا (من كتاب

المسالك) تحقيق عبد الرحمن الحجى ، بيروت ، دار الارشاد ، ١٩٦٨ م .

ص ٧٠ ، المقرئ : نفع الطيب . تحقيق إحسان عباس . بيروت ، دار صادر

١٩٦٨ ، ج ١ ، ص ١٢٥ وما بعدها .

التي تنهض لدى الساحل ، فضلاً عن أن الأنهار السريعة الجريان ، كانت عائقاً في سبيل الملاحة في معظم شهور السنة ^(١).

على أنه إذا كان ثمة اتصال بين أسبانيا والأراضي التي تليها شمالاً فان هذا الاتصال كان يدنى منه البرتات Pirineos ^(٢)، وهي سلسلة جبال عالية ووعرة ، تجعل المرور عبر بواباتها الأربع أمراً صعباً ^(٣) ، ويزيد من صعوبته أن أقام بالجهة الغربية من هذه الجبال اليشكُنس Los Vascos ، وكانوا يضايقون من يحاولون عبور البرتات من ناحيتهم ، وفعلوا ذلك مع شارلمان Charlemagne (٧٦٨-٨١٤م) وأصابوه بنكبة كبيرة في

١ - Cambridge Economic History of Europe . 1971 . P . 432

ولم ينجح المجوس أو الأردمانيوم (وهم الفايكنج Wikingos) في اقتحام هذه الأنهار رغمًا عن مهاراتهم الملاحية العالية . راجع بشأن غزواتهم . ابن القوطية : تاريخ افتتاح الأندلس ، تحقيق ابراهيم الإبياري ، القاهرة ، دار الكتب الاسلامية ، ١٩٨٢ ، ص ٧٨ - ٨٣ ، ابن حيان : المقتبس ص ٢ ، تحقيق محمود على مكى ، بيروت ، دار الكتاب العربي ، ١٩٧٣ ، ص ٣٠٧ وما بعدها ، المقتبس ، قطعة من عهد الحكم المستنصر تحقيق عبد الرحمن الحجى ، بيروت ، دار الثقافة ، ١٩٦٥ ، ص ٢٤ ، ٦٦ ، ٦٧ ، ٩٢ العذرى : نصوص عن الأندلس ، تحقيق الأهرانى ، مدريد ، ١٩٦٥ ، ص ٩٨ وما بعدها .

٢ - وتعرف خطأً بالبرانس .

٣ - الإدريسى : نزهة المشتاق . تحقيق تشيرولى وآخرين ، روما ، ١٩٧٠ ، ج ٧ ، ص ٧٣ .

رونسفال Roncessvalles ^(١) . وقد تنبه العرب إلى ذلك فكانوا فى معظم غزواتهم ، يعبرون هذه الجبال من الناحية الشرقية ، ويسيطرون مع الساحل ، أفيجتازون إلى أفرنجية .

ومع ذلك فإن جبال البرتات لم تمنع الاتصال بين قطالونية Catalonia فى شمال شرقى أسبانيا وبين سبتمانيا Septimania على الساحل الفرنجى ، وينقل البكرى (ت ٤٨٧ هـ) ^(٢) عن قسمة قسطنطين زن سبتمانيا جزء من الأندلس ومدينتها ، نربونة Narbonne ، وقد سمح الاتصال بين قطالونية وسبتمانيا بتكوين الشجر الاسبانى Narca Hispanca وقصبته برشلونة (أو برشنونة) Barcelona فى مطالع عصر الإمارة الأموية ، وقد تميزت هذه المنطقة عبر العصور بشخصيتها المستقلة وبلغتها التى تمت بصلات من القربى مع لغة جيرانها الشماليين ^(٣) .

١- أو شيزروا كما يرسمها الإدريسي ، المصدر نفسه والصفحة نفسها .

٢- المصدر نفسه ، ص ٥٩ - ٦٠ .

٣- لم تلعب قطالونية دورا رئيسيا فى حركة الاسترداد Reconquista ، وظلت تابعة كنسيا لنربونة حتى سنة ١٠٩١ م ، وكانت تتبع التقويم الفرنجى ، وظل الأسبان - مسلمين ونصارى - يطلقون على أهلها حتى القرن الثانى عشر الميلادى تعبير فرنجية أنظر :

Amèrico Castro : Espana en Su historia , Cristianos , Moros y Judios.

Buenos Aires , Editorial Losada, 1948. P. 80 .

على أن هذا الاتصال بين قسم من أسبانيا وبين ما يليه شمالا ، لم يكن معناه استمرار هذا الاتصال بين الأراضى جنوبى البرتات وشمالها ، كما أن التأثيرات الوافدة من إفريقيا نحو قطلونية ، لم تستمر إلى سائر أقاليم اسبانيا ، بسبب التقطع الجغرافى الداخلى ونشير إليه بعد .

وتنفصل أسبانيا عن بلاد المغرب جنوبها بحرا ، ولكن ثمة اتصالا بين السهل الأندلسى وبين العدو ، وتروى الأساطير أن العدوتين كانت متصلتين فى القديم إلى أن فصل بينهما الاسكندر^(١) . ولا يبدو الاختلاف كبيرا بين جبال الأطلس فى الريف المغربى وبين جبل الثلج (شُلير) Sierra Nevada فى أسبانيا^(٢) (والفاصل بين العدوتين يسمى المجاز أو الزقاق ، مما يدل على قرب المسافة ، ويذكر المسعودى^(٣)) (٣٤٦ هـ) أن الناس يعبرونه من غدوة إلى الظهر ، وفى كتاب موسى بن نصير إلى الخليفة الوليد بن عبد الملك (٨٦ هـ / ٧٠٥ م - ٩٦ هـ / ٧١٥ هـ) حين وجده متخوفا من عبوره إلى الأندلس " إنه ليس ببحر وإنما هو خليج يصف صفة ما خلفه للناظر " (٤).

١- الإدريسى : المصدر نفسه ج ٥ ص ٥٢٦ - ٥٢٧ ، المقرئ : المصدر نفسه ، ج ١ ، ص ١٣٥ - ١٣٦ .

٢- البكرى : المصدر نفسه ص ٨٥ .

٣- مروج الذهب . تحقيق محمد محى الدين عبد الحميد . بيروت ، دار المعرفة ، ج ١ ، ص ١١٩ .

٤- مجهول : أخبار مجموعة فى فتح الأندلس ، نشر لافرينتى ألكنترا . مجريط ، ١٨٦٧ ، ص ٦ .

وبوجه عام فان عدوتى المضيق اجتمعنا لدى سلطة واحدة فى أزمنة مختلفة ، وفى العصر الرومانى كانت ولاية مرطانية الطنجية -Mau- retania Tingtana تضم سواحل العدوتين ^(١) وعندما اشتد ساعد الأمويين بعد اعلان الخلافة ، استولى الناصر (٣٠٠ هـ / ٩١٢ م - ٣٥٠ هـ / ١٩٦١ م) على سبتة ، وأطاعه بنو إدريس وملوك زناته ^(٢) ، وفيما بعد سقطت عدة من معاقل المغرب وثغورها البحرية قبل سقوط غرناطة Granada نفسها .

وكما كانت الحال بالنسبة لقطالونية ، فان التأثيرات القادمة من الجنوب كانت تضعف حين تجاوز حدود السهل الأندلسى ، وفى الحالين جعلت هذين الاقليمين يتفردان فى خصائصهما عن سائر أقاليم أسبانيا .

-2-

الموقع المنعزل البعيد هياً للأندلس الفرصة لأن تتخذ لنفسها فى وقت مبكر طريقاً مستقلاً عن الدولة الاسلامية العامة ، ويعود ذلك إلى سنوات قليلة بعد الفتح ، فلا نجد فى مصادرنا خبراً عن أن الأندلس أرسلت مالا إلى حاضرة الدولة ، مع أنها قطر عظيم الجباية ^(٣) ، كما أن

١- O` Callaghan , J . F : A history of medieval Spain . Cornell - ١٩٧٥ P . 30 .

٢- ابن عذارى : البيان المغرب ، تحقيق ليفى بروفنسال ، بيروت ، دار الثقافة د . ت ج ٢ ، ص ٢٠٤ وما بعدها .

٣- حسين مؤنس : فجر الأندلس : القاهرة ، الشركة العربية للطباعة والنشر ، ١٩٥٩ . ص ٦٣٠ .

أهل الأندلس كانوا غالباً ما يختارون ولايتهم^(١) ، وكانت الدولة -
ويعملها أحياناً ولاية المغرب - ترضى بهذا الواقع الذى لم يكن بإمكانها
تغييره أو كان صعباً تغييره ، بل ربما هى بسكوتها أضفت عليه طابعاً
شرعياً .

هذا الاستقلال لم يلبث أن تم تقنينه لدى ولاية عبد الرحمن الداخل
١٣٨ هـ / ٧٥٥ م - ١٧٢ هـ / ٧٨٨ م الذى نجح فى أن يقرر مبدأ
الإمارة دون تفويض^(٢) ، وصارت هذه حال ولده من بعده ، إلى أن نجح
حفيد بعيد له ، فى أن يتسمى بالخلافة ، نافياً لحق العباسيين وحق
الفاطميين - معا - فيها .

لم يكن انفراد الداخل بالأندلس مجرد إعلان عن انفراد أسرة بعينها
(الأموية) بهذه البلاد عن أسرة أخرى (العباسية) ، إنما كان يعنى فى
المحل الأول ، أن قطراً إسلامياً بعينه (الأندلس) اتخذ لنفسه طريقاً
مستقلاً عن الدولة الإسلامية العامة (بغداد) .

وبطبيعة الحال فإن هذه الخطوة لن تمر دون رد فعل من جهة المركز ،
فقد سعى هذا الأخير غير مرة لأن يعيد الوضع إلى ما كان عليه ،
واستعان على ذلك بعناصر طامحة من سكان هذا القطر ، لكن هذه

١- المرجع نفسه ، ص ٦٠٩ .

٢- لمزيد من التفاصيل راجع الفصل الثالث من كتابنا أندلسيات ، القاهرة ،
مكتبة مدبرلى ، ص ص ٧١ - ٧٩ .

المحاولات لم تنجح ، وانتهى الأمر بأحد هؤلاء الطامحين ^(١) ، إلى أن بعث برأسه واللواء الذى رفعه إلى الخليفة الذى أرسله ، وهو يحج إلى بيت الله الحرام ^(٢) .

حرص حكام الأندلس على استقلال بلادهم ، وأداهم حرصهم إلى حد أنهم كانوا يمنعون أهل دولتهم من السفر لأداء فريضة الحج ، ولانسمع أن أحدا من أهل الدولة بالأندلس خرج حاجا ، إلا بعد ذهاب بنى أمية ، وتفرق أمر الأندلس ^(٣) .

ويطول بنا الحديث عما تلا من صراعات بين أمويى الأندلس وفاطمى المغرب ، وانتهت هذه الصراعات إلى أن أضحت المغرب الأقصى منطقة نفوذ لخلافة قرطبة .

على أن تحقق الاستقلال السياسى لم يكن بكاف بالنسبة للأندلسيين ، وظهر ميل واضح لدى الدولة والشعب معا إلى التوحد فى مذهب دينى محدد ، هو مذهب الإمام مالك رضى الله عنه (ت ١٧٩هـ) . هذا التوحيد كان قمينا بأن يجعل الأندلسيين متميزين إزاء إخوانهم المشارقة ، ويكفل لهم وحدة داخلية فى جزيرة قميل - كما نوضح بعد إلى التعدد - ويشاركهم هذه الجزيرة قوم يختلفون عنهم دينيا

١- العلاء بن مغيث اليحصبى (أو الحضرمى) من أهل باجة Beja وجرى حركته فى سنة ١٤٦هـ / ٤٦٣ م .

٢- ابن القرطبة : المصدر نفسه ص ٥٤ - ٥٥ ، أخبار مجموعة ص ١٠١ - ١٠٣ .

٣- ابن خلدون : المصدر نفسه ، ج ٢ ، ص ٧٣٩ .

وسياسياً ، ويسعون إلى طردهم منها ، وربما كان أمراً له دلالة أن مذهب مالك ، دخل إلى الأندلس في حياة مالك نفسه ، وفي حياة الأمير الداخل وولده هشام ^(١).

ويلوح لنا أن ثمة ترابطاً بين سيادة مذهب مالك في أسبانيا الإسلامية في أواخر القرن الثامن الميلادي ، وبين سيادة عقيدة شنتياقب Santiago de Compostela في أسبانيا النصرانية في أوائل القرن التاسع الميلادي ، فان نصارى الشمال وجدوا في هذه العقيدة توحيداً سياسياً - دينياً لهم إزاء أخصامهم الذين يسبقوهم إلى هذا التوحيد ، وقد صار شنتياقب (القديس يعقوب) يلى عندهم المسيح عليه السلام نفسه ، يسبق في ذلك القديس بطرس ، وصارت ليعقوب هذا راية خاصة يخوض النصارى تحتها معاركهم ضد المسلمين ، وصار من ألقابه Mat-amoros أى قاتل المسلمين ^(٢)، ولم يلبث أن اتسع مجال هذه العقيدة ، فكان ضريح يعقوب محجاً لنصارى يأتون من خارج شبه الجزيرة .

يصف الإدريسي (ت حوالي ٥٦٠ هـ) كنيسة شنت ياقوب فيقول :

" وهذه الكنيسة مشهورة مقصود نحوها محجوج إليها ، والروم يأتونها من جميع الأقطار ، يحجون إليها ، وليس بعد كنيسة بيت المقدس كنيسة أعظم منها ، وهى تضاهى كنيسة قمامه (يقصد كنيسة القيامة) ، فى حسن البناء وسعة الغناء وكثرة الأموال " .

١- Castro : Op cit . p . 112 .

٢- المصدر نفسه ، ج ٧ ، ص ٢٢٨

ونعاود مذهب مالك .

تفرد الأندلسيون بالتحمس لمذهب مالك تحمسا لا نجدده عند غيرهم ، ويتعجب المقدسى (ت ٣٥٥ هـ) من أن " أهل الأندلس لا يعرفون سوى كتاب الله وموطأ مالك " و يروى - على لسان سلطانهم - " لا أحب أن يكون فى عملى مذهبان " (١) .

ويصعب علينا أن نحصى مظاهر الأندلسيين لمذهب مالك دون غيره من مذاهب أهل السنة ، فعندما أتى بقى بن مخلد (ت ٢٧٦ هـ) من المشرق وكان شافعيًا ، اتهمه الفقهاء بالبدعة ، وأثاروا العامة ضده ، وخاطبوا الأمير محمدا (٢٣٨ هـ / ٨٥٧ م - ٢٧٣ هـ / ٨٨٦ م) بشأنه ليسفك دمه ، فخاف بقى ، وعقد العزم على الهرب من البلاد ، لولا وساطة الوزير هاشم بن عبد العزيز ، الذى هيا له مناظرة خصومه بمجلس الأمير فغلبهم (٢) .

وكان منذر بن سعيد قاضيا للجماعة لسنوات طويلة من سنة ٣٣٩ هـ إلى أن مات فى سنة ٣٥٥ هـ ، ومع أنه كان من أهل الظاهر ، إلا أنه كان إذا جلس إلى القضاء يقضى بمذهب مالك (٣) .

١- أحسن التقاسيم . ليدن ، بريل ، ١٩٦٧ ، ص ص ٣٣٦ - ٣٣٧ .

٢- ابن الفرضى : تاريخ علماء الأندلس ، القاهرة ، الدار المصرية للتأليف والترجمة ، ١٩٦٦ . ج ١ ، ص ص ٩١ - ٩٣ تر ٨٣ ، الرازى فى ابن حيان : المصدر نفسه ص ٢ ، ص ص ٢٤٧ - ٢٤٩ .

٣- ابن الفرضى : المصدر نفسه ج ٢ ص ١٤٤ تر ١٤٥٤ ، المقرئ : المصدر نفسه ، ج ٢ ص ٢١ .

ولم تذهب دولة مالك بذهاب دولة بنى أمية ، ورغمما عما كان لابن حزم (ت ٤٥٦م) من مكانة بين أهل عصره ، إلا أن كتبه أحرقت ، وأوى المفكر الكبير إلى قريته الصغيرة فى غربى الأندلس ، منزويا عن الناس إلى أن مات (١) ، وظلت كتبه مطاردة سنوات طويلة بعد ذلك (٢).

إذا كانت هذه حال مذاهب أهل السنة ، فإن الحال كانت أكثر تطرفا مع غيرهم من المذاهب الإسلامية الأخرى ، خصوصا إذا ما رافق هذه المذاهب نزوع سياسى بعينه ، فلا نشاهد للخوارج وجودا واضحا بالأندلس ، ولم تكن مشاركة بربر الأندلس إخوانهم بربر المغرب فى ثورتهم الكبرى (١٢٢هـ / ٧٤٠م - ١٢٥هـ / ٧٤٣م) ثورة خوارج ، إنما كانت ثورة بربر تعصبوا لإخوان لهم بربر ، وإن كانوا خوارج ، ولا تحدثنا المصادر إلا عن حركة للخوارج فى عهد الحكم الربضى (١٨٠هـ / ٧٩٦م - ٢٠٦هـ / ٨٢٢م) بالجزيرة الخضراء ، Algeciras لم يلبث أن انقضت سريعا ، ولم يترتب عليها شئ (٣) ، ويكتفى ابن حزم (٤) - فيما بعد - فيشير إلى عادات استغريها لدى بعض الإباضية المعاصرين بالأندلس .

١- المقرئ : المصدر نفسه ، ج٢ ، ص ٦٧ .

٢- ابن خلدون : المصدر نفسه ، ج٣ ، ص ٤٨٠ .

٣- ابن القوطية : المصدر نفسه ، ص ٦٧ - ٦٨ .

٤- الفصل فى الملل . تحقيق عبد الرحمن عميرة ومحمد ابراهيم نصر ، جدة ، عكاظ ١٩٨٢ ج٥ ، ص ٥١ .

أما عن الشيعة فإن وجودهم يرتبط أساسا بالصراع الذي احتدم بين الفاطميين والأمويين ، خصوصا على المغرب الأقصى ، وكان عدد منهم جواسيس أتوا من خارج الأندلس ، يمكن أن ندخل فيهم الجغرافى ابن حوقل (ت ٣٦٧ هـ) أو دعاة أتوا أيضا من خارج الأندلس ، مثل الداعيين اللذين أرسلهما عبيد الله المهدي (٢٩٧ هـ / ٩١٠ م - ٣٢٢ هـ / ٩٣٤ م) إلى عمر بن حفصون (ت ٣٠٥ هـ) الثائر على الأمويين بكورة رية Rejio ، وقد أقاما لديه عدة سنوات ، وحضرا بعض حروبه ، ثم انصرفا بعد ذلك إلى المغرب ^(١).

فاذا انتقلنا إلى غير هؤلاء وأولئك من أهل الكلام ، وبخاصة المعتزلة ، فقد تسربت أفكارهم إلى الأندلس مع بعض الأندلسيين المبتعثين إلى المشرق ، وأشهرهم محمد بن عبد الله ابن مسرة (ت ٣١٩ هـ) الذى تعرض لتنكيل الدولة ، إلى أن مات ^(٢) . وأصدر الناصر بشأنه

١- ابن الخطيب : أعمال الأعلام ج٢ ، تحقيق ليفى بروفنسال ، بيروت ، دار المكشوف ١٩٥٦ م ، ص ٢٢ ، ويذهب الأستاذ الفاضل محمود مكى إلى أن شقنا بن عبد الواحد الثائر على عبد الرحمن الداخل بكورة شنت بركة Santa Maria وتسمى بالفاطمية كان شيعيا (التشيع فى الأندلس ، مقال فى صحيفة المعهد المصرى للدراسات الإسلامية بمدريد ، العدد الثانى ١٩٥٤ م ص ٩٨ - ٩٩) لكننا لانقف فى مصادرنا على خبر يؤكد ذلك ، ولا يوجد سوى نص اعتمد عليه مكى ورد فى البيان المغرب (ج٢ ، ص ٥٤) ذكر فيه " الداعى الفاطمى " ونرجح أنه تصحيف من الناسخ صحته (الدعى الفاطمى) .

٢- أنظر بشأنه بالنشيا : تاريخ الفكر الأندلسى . ترجمة حسين مؤنس . القاهرة ، النهضة المصرية ١٩٥٥ م ، ص ٣٢٦ - ٣٣٢ .

كتابا قرىء فى أقطار البلاد^(١)، ونشط عدد من علماء الأندلس فى إدانة المسرية ، ونقض ما جاءت به من أفكار^(٢).

وظل الموقف من المعتزلة كما هو فى العصور التالية ، وبعد أن تفرق أمر الأندلس ، وحين عاد أحمد بن خلف الحضرمى (ت فى حدود ٦٤٣ هـ) من المشرق بتفسير الكشف للزمخشري^(٣) ، فانه تعرض لاستهجان معاصريه ، ونشط بعضهم فى تصنيف ردود على هذا الكتاب^(٤).

ومع أن الأندلس أنجبت خلال القرن السادس الهجرى عددا من الفلاسفة ذاع صيتهم فى الشرق والغرب معا ، ويأتى فى مقدمتهم ابن رشد (الحفيد ت ٥٩٥ هـ) إلا أنه يلاحظ أن الفلسفة نشأت متأخرة فى الأندلس عنها فى المشرق ، ولم تستطع أن تطل برأسها ، إلا بعد أن تفرق أمر البلاد، بل إن أهلها - مع ذلك - تعرضوا للمطاردة . يقول

١- ابن حيان : المقتبس ص ٥ . تحقيق شاليتا . مدريد المعهد الاسبانى العربى للثقافة ١٩٧٩ ص ٢٤ - ٣٠ .

٢- ابن الفرضى : المصدر نفسه ج ٢ ص ٩٤ - ٩٥ تر ١٣٦٣ ، ابن خلكان: وفيات الأعيان ، تحقيق محمد محى الدين عبد الحميد ، القاهرة ، النهضة المصرية ، ١٩٤٨ ، ج ٤ ص ٧ تر ٦٢٣ .

٣- ابن عبد الملك المراكشى : الذيل والتكملة . تحقيق محمد بن شريفة . بيروت، دار الثقافة ج ١ ص ٢٨ - ٣٠ تر ١٢ .

٤- ابن الآبار : التكملة بصحيح السيد الحسينى ، مصر ١٩٥٥ م ، ص ٦٥ - ٢٠ .

ابن سعيد (ت ٦٨٥ هـ)^(١) "وهو علم ممقوت بالأندلس لا يستطيع صاحبه إظهاره ، فلذلك تخفى تصانيفه " .

ووصلت الحال بالعلوم القديمة على نحو عام أنها صارت مكروهة ، وكان بعض الحكام كثيرا ما يلجئون إلى حرق كتبها تحببا إلى العلوم ، ومن هؤلاء المنصور بن أبى عامر (٣٦٨ هـ / ٩٧٨ - ٣٩٢ هـ / ١٠٠٢ م) الذى أخرج ما كان منها فى خزانة الحكم المستنصر (٣٥٠ هـ / ٩٦١ م - ٣٦٦ هـ / ٩٧٦ م) وأحرقها فى آبار القصر ، وهيل عليها التراب والحجارة^(٢).

-3-

أفضى هذا الاستقلال إلى إحساس الأندلسيين بخصوصيتهم التى تميزهم عن إخوانهم المشاركة ، وظلت هذه الخصوصية تنمو على مر السنين ، ولم تلبث أن تبدت ملامح هذه الخصوصية فى الأندلسيين صاروا يختلفون عن غيرهم من المسلمين فى عدم ميلهم إلى ارتداء العمامة^(٣) ، ووصل بهم الحال فى تميزهم إلى أن صاروا يرتدون فى أحزانهم البياض ، مما أثار حيرة أحد الشعراء مضى يتلمس لهذه الظاهرة أصولا ، فيقول^(٤):

١- المقرئ : المصدر نفسه ، ج ٣ ، ص ١٨٦ .

٢- صاعد الأندلس : طبقات الأمم . تحقيق حياة برعلران . بيروت ، دار الطليعة ١٩٨٥ ص ص ١٦٣ - ١٦٤ .

٣- المقرئ : المصدر نفسه ، ج ٢ ، ص ١٤٥ .

٤- المصدر نفسه ، ج ٣ ص ٤٤٠ - ٤٤١ .

ألا يا أهل أندلس فطنتم بلطفكم إلى أمر عجيب
لبستم في مآتمكم بياضا فجتتم منه في زى غريب
صدقتم فالبياض لباس حزن ولا حزن أشد من المشيب

على أن الأهم من ذلك كله هو جوار هذا الثغر الواقع على تخوم دار الإسلام لدار الحرب ، وأفضى هذا الجوار إلى حال حرب شبه دائمة بين الأندلس وبين جيرانها في شبه الجزيرة هذه الحال التي أضفت على تاريخ الأندلس طابعا سياسيا واضحا . وما دام الجهاد يستمد أصوله من الدين نفسه ، فقد وضعت أحاديث نبوية تنوّه بفضل الأندلس ^(١) ، ووصلت الحال بابن الخطيب (ت ٧٧٦هـ) ^(٢) في القرن الثامن إلى أن يفضل الجهاد على الحج ، باعتبار أن هذا الأخير فضيلة خاصة بفرد ، في حين أن الجهاد فضيلة خاصة بجماعة .

ويحتل الرباط مكانا خاصا في الجهاد ، لذلك شاهدنا الأندلسيين ينشئون العديد من الرباطات ، وبخاصة لدى السواحل ، وأشهرها رباط المرية Almeria الذي أضحى فيما بعد القاعدة الرئيسية للأسطول الإسلامي بالأندلس ^(٣) .

١- الحميدى : جذوة المقتبس . القاهرة ، الدار المصرية للتأليف والترجمة ١٩٦٦م ، ص ٦ - ٧ وابن عذارى : المصدر نفسه ج ١ ، ص ٦ - ٧ .

٢- المقرئ : المصدر نفسه ج ١ ص ١٨٨ - ١٨٩ .

٣- العذرى : المصدر نفسه ص ٨٦ ، الحميرى : الروض المعطار تحقيق إحسان عباس بيروت ١٩٨٤ م ، ص ٥٣٧ - ٥٣٨ .

أقام لدى هذه الرباطات عدد من زهاد المسلمين وعبادهم ، منهم ابن لبّاج الأموي الشنتجياي (ت ٤٣٦هـ) ، وكان قد ارتحل إلى المشرق ، وجاور بالحرم نحو أربعين سنة ، ثم عاد إلى قرطبة Cordoba ، ولم يلبث أن غادرها ليرابط بالثغور الغربية إلى أن اعتلت صحته ، فعاد إلى قرطبة مرة ثانية ، حيث مات بعد قليل ^(١).

كان لوجود هذه الرباطات أثرها في الجبهة المقابلة بدار الحرب ، فنشأ بين الرهبان في الأديرة مقاتلة أعانوا فيما بعد ، على اشتداد ساعد حركة الاسترداد ، وتطور الأمر في القرن الثاني عشر الميلادي ، حيث نشأت جماعات عسكرية دينية Ordones Militares مثل Alc`antara , Santiago , Calatrava وغلب عليها الطابع السياسي في القرن الرابع عشر .

وسعى البعض إلى أن يلتمس أصول هذه الجماعات الفرنسية التي توافدت إلى أسبانيا مثل الداوية Templarios والاسبتارية Hos-pitalarios ، لكن الاتجاه الحديث هو تأثير الجماعات الاسبانية بالرباطات الأندلسية ، لأن الكنيسة لم تكن تنظر بعين الرضا إلى الراهب الذي يجمع بين الزهد والسيف معا ^(٢) .

١- ابن بشكوال : الصلة . القاهرة ، دار الكتاب العربي ١٩٦٧ م ، ج ١ ص ٢٧١ - ٢٧٣ تر ٥٩٨ .

٢- Castro : op cit . PP . 188 - 184 .

ومما يؤكد ذلك وجود أماكن عديدة في أسبانيا والبرتغال تدعى Rapita,Rabida وتعني Arrebatat انتزع أو سلب ، كما تعني Arrobadada حرسا أماميا أو طليعة Ibid p . 190 .

ونعاود موضوعنا

الأندلس بوصفها موضع جهاد كانت مدعاة لفخر الأندلسيين وزهوهم إزاء اخوانهم المشاركة ، وتدافعت هذه النعرة لديهم ، خصوصا بعد أن تحقق لهم الاستقرار وازدهرت حضارتهم ووصلت إلى حال من التعالي ، وصنفت في هذا الشأن رسائل منها رسالة مشهورة لابن حزم^(١) ، وهو عندما يفاضل بين علماء الأندلس وعلماء المشرق ، أضاف المغاربة إلى جملة المشاركة ، وجعل الجميع إزاء علماء الأندلس وابن حزم نفسه له بيت مشهور يقول^(٢) :

ويا جوهر الصين سحقا فقد غنيت بياقوتة الأندلس

نزعة التباهي هذه كانت تصل أحيانا إلى حد التعريض بالغير والإساءة إليه ، ويروى ابن سعيد^(٣) عن أبيه أنه جرى بين أبي الوليد الشقندي وأبي يحيى بن المعلم الطنجي - بمجلس الأمير أبي يحيى الموحدى- نزاع في التفضيل بين البرين ، فقال الشقندي / لولا الأندلس لم يذكر بر العدو ، ولا سارت عنه فضيلة ، ولولا التوقير للمجلس لقلت ما تعلم ، فقال الأمير : " أتريد أن تقول كون أهل بحرنا عربا وأهل بركم بربر " فقال : " حاشى لله " فقال الأمير : " والله ما أردت غير هذا " فظهر في وجهه أنه أراد ذلك ، واتفق على أن يعمل كل منهما رسالة في تفضيل بره .

١- في المقرئ : المصدر نفسه ، ج ٣ ، ص ١٥٦ - ١٧٩ .

٢- طرق الحمامة ، تحقيق الطاهر مكي ، القاهرة ١٩٨٠ ، دار المعارف ص ٩١ .

٣- المقرئ : المصدر نفسه ج ٣ ، ص ١٨٦ .

بيد أن الموقع ، وإن كان قد حقق للأندلس استقلاله السياسى والمذهبى معا ، فإنه كانت له عيوبه فى عصور الضعف ، وإذا كان المغرب قد هرع لنجدة الأندلس مرتين فى زمن المرابطين وفى زمن الموحدين ، إلا أنه بعد إخفاق هؤلاء الأواخر فى العقاب Las Navas de Tolosa سنة ٦٠٩ هـ / ١٢١٢ م . أضحت الأندلس منفردة أمام عدو أقوى منها بكثير ، ولم يجد نفعا صريخ ابن الأبار (ت ٦٥٨ هـ) فى سينيته المشهورة ^(١) ، ولم تستطع السفن التى أرسلها صاحب أفريقية الحفصى شيئا لنجدة أهل بلنسية Valencia ، ولم تلبث المدينة أن سقطت فى أيدي النصارى فى سنة ٦٣٦ هـ / ١٢٣٨ م وعادت السفن أدراجها إلى أفريقية ^(٢) .

على أن الأهم من ذلك هو ما جرى إبان الصراع الأخير ، حين باتت آخر قلاع الإسلام فى غرناطة على شفا المنحدر ، فبعد أن ينس زهل الأندلس من إخوانهم المغاربة ، بعثوا فى عون سلطان مصر سنة ٨٤٤ / ١٤٤٠ ، لكن الظاهر جقمق ٨٤٢ هـ / ١٤٣٨ م - ٨٥٧ هـ / ١٤٥٣ م اعتذر لبعد الشقة ووعدهم بأن يعينهم بمال وعدة ، ووقف الأمر عند هذا الحد ، وليس لدينا خبر عن مال أرسل ولا عدة ^(٣) .

١- وأولها : أنجد بخيلك خيل الله أندلسا أن السبيل إلى منجاتها درسا

٢- المقرئ : المصدر نفسه ج٤ ، ص ص ٤٥٦ - ٤٦٠ .

٣- المقرئ : السلوك ، تحقيق سعيد عاشور . القاهرة ، ج٤ ، ق ٣ ص ١٢١٩ ،

محمد عبد الله عنان : دولة الإسلام ، ع ٤ ، ص ١٦٢ .

وتكررت السفارة فى سنة ٨٩٢ هـ / ١٤٨٧ م واكتفى السلطان الأشرف قايتباى ٨٧٢ هـ / ١٤٦٨ - ٩٠١ هـ / ١٤٩٦ م بتهديد "صاحب قشتيلية" بهدم كنيسة القمامة والقبض على أعيانها ، ومنع الفرنج من الحج إليها (١).

أما عن القوة الإسلامية الرئيسية ، وهى السلطنة العثمانية ، فانها لم تفعل شيئاً هى الأخرى ، وإن شارك بعض المنتسبين إليها من مجاهدى البحر فى الإغارة على القواعد الشرقية لأسبانيا بعد سنوات من سقوط غرناطة .

-4-

ترتب على جوار المسلمين الأندلسيين لنصارى أندلسيين أن نشأت علاقات اجتماعية حميمة بين الجانبين ، ويطول بنا الحديث عن هذه العلاقات ، ويمكن مراجعة تفصيلاتها فى أطروحتنا لدرجة الدكتوراه (٢) ، وإلى مقال قيم للأستاذ الفاضل أحمد مختار العبادى (٣). ونكتفى هنا بأن ننوه بعلاقات الزواج بين المسلمين والنصارى ، وأفضت هذه العلاقات

١- ابن اياس :بدائع الزهور . تحقيق محمد مصطفى ، القاهرة ، الهيئة العامة للكتاب ، ج٣ ص ص ٢٤٤ - ٢٤٥ .

٢- المعاهدون فى الأندلس ، كلية الآداب جامعة القاهرة ١٩٨٣ غير منشورة ص ص ١٦٣ - ١٧٢ .

٣- الإسلام فى أرض الأندلس " مجلة عالم الفكر م ١٠ ع ٢ ، ١٩٧٩ ، ص ص ٥٩ - ١١٠ .

إلى أن فقد المسلمون الواقدون نقاوتهم العرقية ، وإذا اتخذنا نموذج الأسرة الأموية كعينة ، فقد دعى المنذر بن عبد الرحمن الناصر بابن القرشية لانفراده بين أقربائه بكونه قرشى الأب والأم معا^(١). يقول ابن حزم : (٢) " وأما جماعة بنى مروان - رحمهم الله - ولاسيما ولد الناصر منهم ، فكلهم مجبولون على تفضيل الشقرة ، لا يختلف فى ذلك منهم مختلف ، وقد رأيناهم ورأينا من رأيهم ، من لدن دولة الناصر إلى الآن ، فما منهم إلا أشقر نزاعا إلى أمهاتهم ، حتى صار ذلك فيهم خلقة حاشى سليمان الظافر - رحمه الله - فانى رأيته أسود اللمة واللحية " .

عند انعكاس هذه العلاقات الاجتماعية علىبنى الثقافية ، فان لغة الأندلسيين العامية تأثرت باللغة اللاتينية (وقد دعوها اللطينية) ، بل أن الكثيرين منهم كانوا على دراية باللغة اللاتينية ذاتها وقد يجيدونها^(٣). وعندما كان المقدسى بمكة التقى ببعض الحجاج الأندلسيين ويعلق بأن^(٤) " لغتهم عربية غير أنها منغلقة - مخالفة لما ذكرنا فى الأقاليم ، ولهم لسان آخر يقارب الرومى " .

١- ابن حيان : المصدر نفسه ، م ٥ ص ١٠ ، ابن الأبار : الحلة السيرة .
القاهرة ، الشركة العربية للطباعة والنشر ، تحقيق حسين مؤنس ، ص ٢١٠ ،
تر ٨٠١ .

٢- المصدر نفسه ، ص ٤٨ .

٣- راجع مناقشتنا لهذه القضية فى كتابنا أندلسيات ، الفصل الأول ، ص ص
١٣ - ١٨ .

٤- المصدر نفسه ، ص ٢٤٣ .

على أن الوجود المستمر للغة اللاتينية طيلة عصور التاريخ الأندلسي، كانت له حسنة كبيرة فقد شكل تحديا مستمرا لوجود اللغة العربية ذاته ، وهياً للأندلسيين حافظا كبيرا كى يسعوا للمحافظة على لغتهم العربية خصوصا " وقد أصابها اللحن ، وهذه ظاهرة عامة نلاحظها فى الأقطار العربية التى تقع على التخوم مع العجم ، ومثلما ازدهرت علوم اللغة - وبخاصة النحو - فى مدينة البصرة ، فقد ازدهرت أيضا فى الأندلس ، وظهر عدد من أعلامها ، نذكر منهم ابن القوطية (ت ٢٦٧هـ) والزبيدي (ت ٣٧٩هـ) وابن مالك (ت ٦٧٢هـ) صاحب الألفية المشهورة .

يقول ابن سعيد ^(١) : والنحو عندهم فى نهاية من علو الطبقة ، حتى أنهم فى هذا العصر فيه كأصحاب الخليل وسيبويه ، لايزداد مع هرم الزمان إلا جدة ، وهم كثير والبحث فيه وحفظ مذاهبه ، كمذاهب الفقه ، وكل عالم فى أى علم لا يكون متمكنا من علم النحو بحيث لا تخفى عليه الدقائق ، فليس عندهم بمستحق للتميز ولا سالم من الازدراء ، مع أن كلام أهل الأندلس الشائع فى الخواص والعوام كثير الانحراف عما تقتضيه أوضاع العربية " .

وعندما يذكر صاحب الروض المعطار ^(٢) آذربيجان يأتى للحافظ أبى ظاهر السلفى :

١- المقرئ : المصدر نفسه . ج ١ . ص ٢٢١ .

٢- الحميرى : ص ٢٠ .

ديار أذربيجان في الشرق عندنا كاندلس الغرب في النحر والأدب

فلست ترى في الدهر شخصا مقصرا من أهلها إلا وقد جد في الطلب

ترتب على هذه العلاقات الاجتماعية شيء آخر ، فقد خفت صوت العصبية للعرق ، ولم يتجاوز حد المفاخرات الشعرية التي كانت يدورها قليلة^(١) ، وإذا كان أحمد بن دراج - متنبى الأندلس - ينتمى في أصله البعيد إلى البربر ، فإننا لانحس بصدى من هذه البربرية في شعره ، فلا يتحدث عن نسبه ، بل أنه يهجو بربريا مثله وهو زيرى بن عطية المغراوي لدى ثورته على المنصور ابن أبى عامر^(٢).

في غضون عصر الخلافة ، وبعد أن قمعت الدولة الفتنة التي وقعت في أخريات عصر الإمارة وبعد أن قمعت أيضا العصبية العربية ، ولم يعد لها دورها المعهود بها كأجناد ، بدأ يظهر ما يمكن أن نطلق عليه الشخصية الأندلسية ، وتتضح ملامح هذه الشخصية في موقفها من بربر العدو الذين استقدمهم المنصور بن أبى عامر ليعتز بهم ، فقد نفر منهم أهل الأندلس ، حتى الذين كانوا ينحدرون من أصول بربرية ، وكانوا ينظرون إليهم على أنهم قوم غرباء غير متحضرين ، وزاد من هذه النظرة ، ما أقدم عليه البربر من اقتحام قرطبة في سنة ٤٠٣ هـ /

١- ابن الآبار / التكملة م ٢ ص ٤٣٩ تر ١٢٥٧ ، الحميدى : المصدر نفسه ، ص ٢٧٧ تر ٦١٣ .

٢- ديوانه . تحقيق محمود على مكى ، دمشق المكتب الإسلامى ١٩٦١ م ص ٦ ، من النص وص ٢٤ - ٢٥ من المقدمة .

١٠١٣م وتخريبها ، ويعطينا ابن حزم صورة لهذا التخريب فى عبارات مشجية وردت بكتابه الطوق (١).

فى هذه المرحلة تذكر المصادر الأندلسية تعبير الأندلسيين أو البلديين إزاء البربر أو البرابرة (٢). ورغمما عن حاجة الأندلسيين فيما بعد لعون المرابطين (ثم الموحيدين) إلا أنهم لم يكونوا على علاقات طيبة معهم فى أحوال عدة ، وقمادت ثوراتهم ضدهم ، وكذا كانت حال مملكة غرناطة مع معاصريها من بنى مرين .

على أن الأندلسيين فى عصورهم المتأخرة كانوا كثيرا ما ينسبون أنفسهم إلى العرب ، لكن هذه النسبة التى يؤكد بها ابن الخطيب (٣) فى عبارات رومانسية ، هى فى حقيقتها صدى لإحساس أمة مغلوبة فى طريقها إلى منحدر ، وتريد أن تسترجع صورة ماض ذهب ، وليس ثمة أمل فى أوبه . ولدينا فى وثائق (٤) نشرت منذ سنوات ما يؤكد حرص الأندلسيين فى نسبتهم أن ينتسبوا إلى المكان وليس إلى العرق . وظل إحساس الأندلسيين بالانتماء إلى مكان (أى وطن) يصاحبهم حتى بعد نكبتهم الأخيرة ونفيهم ، وقد عاد بعضهم فيما بعد إلى هذا الوطن .

١- ص ١٢٦ .

٢- ابن الخطيب : المصدر نفسه ، ص ١٤٩ وما بعدها .

٣- الإحاطة : تحقيق محمد عبد الله عنان . القاهرة ، مكتبة الخانجي ١٩٧٣ جصص ١٣٤ - ١٣٦ .

٤- لويس سيكودى لوثينا : وثائق عربية غرناطية من القرن التاسع الهجرى . مدريد ، المعهد المصرى للدراسات الإسلامية ، ١٩٦١ ص ٨-٩ .

فى رائعته دون كيشوته Don Quijote de la Mancha يقول
 ثرينتس Cervantes على إسبان الموريسكو (الأندلسى المختصر) المنفى :
 " أينما كنا فاننا نبكى من أجل إسبانيا ، لأننا فى النهاية إلهنا
 هناك ، وهى وطننا الطبيعى ، لذا أشعر بما يطلقون عليه عادة المحبة
 العارمة للوطن " (١).

الانتماء إلى وطن بعينه دون غيره من أوطان ، كان يجعل إحساس
 المسلم الأندلسى تجاه مواطنيه النصارى الأندلسيين ، لا يختلف كثيرا عن
 إحساسه تجاه مواطنيه المسلمين الأندلسيين ، وبطبيعة الحال فإن دينه
 الحنيف أعان على تكريس هذا الإحساس ، وهو ما نعبر عنه بالتسامح ،
 ويؤكد العديد من المؤرخين الفرنج المحدثين هذه الحقيقة (٢).

دامت سياسة التسامح هذه قرونا عدة ، إلى أن قطعها ما جرى من
 استجابة النصارى الأندلسيين لغزوة ابن ذمير وهو أذفونش المحارب
 Alfonso El Batallor ملك أرغونة Aragon (١١٠٤ - ١١٣٤ م)
 فى سنة ٥١٩ هـ / ١١٢٥ ، وترتب على ذلك أن تم تغريبهم أو تغريب
 عدد كبير منهم ، بعد فتوى أصدرها القاضى أبو الوليد بن رشد (الجد
 ت ٥٢٠ هـ) (٣)، على أن بعضهم عاد إلى الأندلس بعد سنوات (٤).

١- Castro : op cit P . 58 .

- ١

2- Ibid : P . 47 .

- ٢

٣- ابن الخطيب : المصدر نفسه ج١ ص ١١٣ - ١٤٤ ، ابن عذارى :
 المصدر نفسه ج٤ ص ٧٢ .

4- O`Callaghan : op cit P 286 .

- ٤

كذلك فإن الإحساس بالأندلسية المعترج بالتسامح كان يدفع المسلمين الأندلسيين داخل دار الاسلام ، لأن ينظروا إلى النصارى الأسبان خارج دار الاسلام على أنهم لا يختلفون عنهم إلا فى ولائهم السياسى . وفى غير أوقات الحرب كانت تجرى علاقات عادية بين الفريقين ، وبعضها علاقات تجارية ^(١) ، ولم يكن الأندلسى القادم من دار الاسلام يجد غضاظة من المقام بدار الحرب ، وكذا كانت حال قرينه النصرانى القادم من هذه الدار إلى دار الإسلام ^(٢) .

فى عصر الطوائف صار بعض المسلمين يعملون كأجناد فى الممالك النصرانية ، وكذا كانت حال بعض النصارى ، وقد خدم رودريجو دياث دى بيارى Rodrigo Diaz de Vivar المعروف بالسيد القنبيطور El cid Campeador فى جيوش المسلمين ، كما خدم فى جيوش النصارى ، والملحمة التى تحمل اسمه تحفل بأسماء مسلمين خدموا معه ، بعد أن صار له جيشه الخاص به ^(٣) .

١- Imamuddin , S.M .Some aspects of socio economic and cultural history of Moslem Spain . Brill 1965 P . 122 .

٢- ليفى بروفنسال : الإسلام فى المغرب والأندلس . ترجمة سالم حلمى ، القاهرة ، نهضة مصر ١٩٥٦ ص ٢٨٤ .

٣- راجع الدراسة القيمة للمحقق الفاضل الأستاذ الطاهر مكى فى مقدمة ترجمته للملحمة القاهرة دار المعارف ١٩٧٩ م ، ص ٧٩ وما بعدها .

وقد امتدت روح التسامح هذه من الأندلس إلى أسبانيا النصرانية ، وهو ما نلاحظه في معاملة النصارى للمسلمين الذى خضعوا لهم بعد سقوط العديد من القواعد الإسلامية . وأفضى سقوط هذه القواعد إلى دخول طوائف كبيرة من المسلمين فى طاعة الملوك النصارى ، وقد دعى هؤلاء المسلمون بالمدجنين Los Mude`Jares ، وعوملوا من قبل سادتهم الجدد معاملة فى جملتها طيبة . صحيح أنه كان يوجد دائما تيار ينحو نحو التضييق عليهم ، نشاهد أمثلة عديدة عليه ، لكن هذا التيار لم يكن له تأثير كبير حتى نهاية القرن الثامن الهجرى / الرابع عشر الميلادى ^(١).

كانت الفكرة السائدة - كما يذهب كاسترو - ^(٢) هى أن المسلمين عدو سياسى ، يجب حربهم ليس بسبب عقيدتهم ، ولكن لأنهم استولوا على أراض تخص النصارى ، ويقرر أن اذفونش العاشر الحكيم Alfonso (١٢٥٢-١٢٨٤) كان يرى أن الكافر يهوديا كان أو مسلما له كتاب مثلما للنصرانى كتاب ومن ثم فهو أهل للاحترام .

1- Castro : op . cit P.. 206 ff .

وفى الأبيات ٦١٦-٦٢٢ من ملحمة السيد توضح أنه لا يجب أن يقتل الأسرى المسلمون ولا أن يباعوا إنما تمارس عليهم السيادة فحسب ، كما يستفاد من خدماتهم، راجع ملحمة السيد ص ٢٢٣ .

2- op . cit. pp . 209 - 211 .

لدينا أمثلة عديدة على روح التسامح هذه ، فعندما سقطت سرقطة Zaragoza فى سنة ٥١٢ هـ / ١١١٨ م . فان آخر ملوكها من بنى هود ، أعطيت له مدينة روضة Rueda فصار فصلا إقطاعيا تابعا للملك ، إلى أن مات فى سنة ٥٢٤ هـ / ١١٢٩ م ، فخلفه فيها ولده سيف الدولة ، إلى أن تخلى عنها للسليطين (أى الإمبراطور) أذفونش بن رمند Alfonso VII (١١٢٦م - ١١٥٧م) فى سنة ٥٣٤ هـ / ١١٣٩ م فعوضه عنها بنصف مدينة طليطلة Toledo^(١).

ولدى سقوط مرسية Mursiai فى سنة ٦٤٠ هـ / ١٢٤٣ م جعل النصارى عم حاكمها السابق المتوكل بن هود حاكما عليها^(٢)، على أن يكون فصلا من أفصال الملك ، وأن يؤدى له نصف أموالها ، ويعلق ايسيدرو دى لاس كاخيچاس Isidro de Cajizas على ذلك بأن مرسية صارت فى حقيقتها دولة مدجنية تحت السيادة النصرانية^(٣).

فى ظل الدجن بمرسيه عاش محمد بن أحمد أبى بكر القرموطى ، وكان من أعرف أهل الأندلس بالعلوم القديمة ، وابتنى له الملك مدرسة يقرى فيها المسلمين والنصارى واليهود^(٤). وفى ظل الدجن أيضا عاش

١- ابن الأبار : المصدر نفسه ، ج٢ ، ص ٢٤٩ - ٢٥٠ .

٢- ابن سعيد، المغرب ، تحقيق شرقى ضيف ، القاهرة ، دار المعارف ١٩٦٤ م ج٢ ، ص ٢٥٢ .

3- O'Callaghan : op. cit. p. 53 .

٤- المقرئ : المصدر نفسه ، ج٤ ، ص ١٣٠ .

القاضي محمد بن محمد بن هشام (ت ٤٠٧هـ) ثم هاجر إلى الأندلس ،
استقر في وادي آش Guadix (١).

وقد أسدى المدجنون لسادتهم هؤلاء خدمات جليلة ، يكفي أن نذكر
منها القصر Alc`azar بأشبيلية Sevilla وبوابة الشمس Puerta de sol بطليطلة (٢).

لكن إذا كانت تلك هي حال السلمين في الدجن .. لماذا اذن نشأ
الاضطهاد؟ يذهب مينديث بيدال R.Mene`ndez Pidal (٣) إلى أن
الاتجاه إلى الملكية المطلقة والشخصية الوطنية للدولة ، وهما من آثار
الرينسانص (النهضة) كانا وراء انتهاء هذه الروح التسامحية العريضة ،
ويؤيده كاسترو (٤) ويضيف أن مفهوم التسامح فقد قوته عندما كف
المسلمون عن إثارة الرعب والإعجاب معا في نهاية القرن الرابع عشر ،
ولم يعد ممكنا للنصارى والمسلمين واليهود أن يعيشوا معا في البيت
نفسه ، بسبب احساس النصارى الدائم بأنه الأقوى بين أقرانه .
على أنه أيا كانت وجهات النظر في سياسة الاضطهاد وشأنها ،
فاننا من جانبنا ننوه بالروح الصليبية التي وفدت من خارج اسبانيا ،

١- النباهي : المرقبة العليا . تحقيق ليفي بروفنسال . بيروت دار الآفاق الجديدة
١٩٨٣ ص ١٣٧ .

٢- Castro : op cit p . 53 .

3- The Spaniards in their history . trans by Starkie london 1950 ,
P . 216 .

4- op . cit p . 211.

تبدت طلائعها في فاجعة بربستر Barbastro سنة ٤٥٦ هـ / ١٠٦٤ م
التي يصفها المؤرخ الكبير المعاصر أبو مروان بن حيان (ت ٤٦٩ هـ /
١٠٧٦ م) ^(١) بأسهاب ولوعة ، وقد قام بها نصارى أردمانيون (نورمان)
أتوا من خارج شبه الجزيرة .

كانت هذه الفاجعة مقدمة لفواجع أخرى توالى بعدها ^(٢) ، وكان
للصليبيين الوافدين الدور البارز فيها ، وكان هذا الدور يتصاعد مع
تصاعد المقاومة الإسلامية الباسلة بالشرق ، وما أحرزته من انتصارات ،
أفضت في النهاية إلى رحيل الصليبيين عن الشام .

ويمكن أن نلاحظ الفارق بين الأسباب النصارى والصليبيين النصارى مما
حدث قبيل معركة العقاب وهي آخر المعارك الكبيرة بالأندلس ، فقد دخل
أذفونش الثامن (١١٥٨-١٢١٤) قلعة رباح Calatrava " صلحا بعد
أن أمن المسلمين " فرجع عن الأذفونش لعنه الله بهذا السبب من الروم
(أى الصليبيون) جموع كثيرة حين منعهم من قتل المسلمين الذين كانوا
بالقلعة المذكورة . وقالوا : إنما جئت بنا لتفتتح بنا البلاد ، وقنعنا من
الغزو وقتل المسلمين ، مالنا في صحبتك من حاجة على هذا الوجه ^(٣) .

١- ابن بسام : الذخيرة وتحقيق احسان عباس . بيروت ، دور الثقافة ١٩٧٩ م
ص ١٧٩ - ١٩٠ .

٢- مثل استيلاء الصليبيين من ألمان وقرنزيين على قصر أبى دانس
Alc`acer do sal في سنة ٦١٤ هـ / ١٢١٧ م .

٣- عبد الواحد المراكشى : المعجب ، تحقيق محمد سعيد العريان ومحمد
العربى العلمى . القاهرة ، المكتبة التجارية الكبرى ١٩٤٩ م ، ص ٣٢١ .

على ذلك وخلال العقود القليلة السابقة لسقوط غرناطة فى سنة ٨٩٧ هـ / ١٤٩٢ م صارت روح التعصب هى السائدة عند النصارى الأسبان وغابت روح التسامح .

-5-

إذا انتقلنا إلى شبه الجزيرة الأيبيرية وخصائصها فى ذاتها ، أى أسبانيا موضعاً ، فاننا - بداية - نتعامل مع ما ورد فى كتب الجغرافية العربية بحذر شديد ، فالجغرافيون العرب فى وصفهم للأندلس ، وجعلها فى معظمها داخلة فى الأقليم الرابع ، وهو خير الأقاليم عندهم ، إنما يضعون فى أذهانهم الأراضى التى استقر فيها المسلمون الأوائل على نحو واضح ، وعرفوها أكثر من غيرها ، فى السهل الأندلسى وجنوبى البرتغال (مقاطعة الغرب Algarve) والشرق Levante وهم فى جميع الأحوال يبالغون فى وصفهم .

ونحن نلاحظ تنوع الخصائص الجغرافية لأسبانيا من تباين فى سطح الأرض وتقطعها الحاد ، وتعدد الأقاليم المناخية ، والغطاء النباتى وأنماط الحياة الزراعية ، وشكلت الميسيتا معظم الدخلى ، وتخرقها سلاسل جبلية عالية ، وتقترب فى بعض الأحيان من سواحل البحر ، فلا تترك سوى أرض صغيرة المساحة منخفضة^(١) .

1- Cambridge : p 32 , Branigan & Jarrett : the mediterranean lands

. Macdonald 1975 pp 202 - 206 .

وتسود البلاد الثلاثة أنماط مناخية : محيطى وقارى ومتوسطى ، وفى الشمال الغربى مطر كثيف موزع على مدار العام ومراع غنية ، وفى الوسط - الميسيتا - استبس قارى شبه جاف ، تغطيه أعشاب فقيرة ، وفى الجنوب والشرق مناخ معتدل صيفا وإن كان أدنى إلى الجفاف فى الشرق ، بوجه عام تعيش معظم أسبانيا فى ظل المطر ^(١).

وأدى هذا بطبيعة الحال إلى تعدد أشكال الحياة الزراعية ، فيعيش بعض هذه الأقاليم على الأمطار التى تتفاوت من مكان إلى آخر ، ويعيش البعض الآخر على مياه الأنهار التى تحمل أحيانا وتجف أحيانا ، وتسبب أضرار فى الحالىن .

تركت الطبيعة الجغرافية أثرها على الاستيطان الإسلامى الأول ، وهو بدوره ترك أثره على الوجود الإسلامى ذاته .

كان الأجناد الذين صحبوا طارقا وموسى يشكلون طلائع المستوطنين المسلمين بالآندلس ، وبطبيعة الحال فقد تتابعت هجرات العرب والبربر فى الحقب التالية لحقبة الفتح ، سواء كانت هذه الهجرات جماعية أم فردية .

وليس عملنا هنا أن نتحدث عن الاستقرار الإسلامى تفصيلا ، إنما نتحدث عنه اجمالا ، ونستطيع أن نقرر أن العرب انتشروا على نحو خاص لدى الأراضى الخصبة المنبسطة بأحواض الأنهار الكبيرة فى الجنوب

١- وانظر أيضا جمال حمدان : بين أوروبا وآسيا . القاهرة ، عالم الكتب ١٩٧٣ ص ص ٩٢ - ٩٣ وليفى بروفنسال ، الحضارة العربية فى أسبانيا . ترجمة الطاهر مكي . القاهرة ، دار المعارف ص ١٥ .

والشرق ، فى حين اختار كثير من البربر السكنى فى المناطق الجبلية وبخاصة الميسيتا الوسطى ^(١).

لم يكن هذا الاستقرار نهائيا إذ خضع لتطورات التاريخ الأندلسى ، وأحداثه المتعاقبة والمتناقضة ، خصوصا بعد أن زادت أعداد المسلمين ، ودخل فى جملتهم كثير من أهل البلاد الأصليين ، وصار هؤلاء هم الكثرة الغالبة بين سكان الأندلس ، لكن الاستقرار الأولى - وقد خضع لعوامل جغرافية - كان منذ البداية غير متوازن فقد تفاوت بين مكان وآخر ، وتفاوتت أيضا الكثافة العددية ، وفى الوقت نفسه جعل المسلمون نواة هذا الاستقرار فى قرطبة ، وهى بعيدة إلى الجنوب ، وقد أتى اختيارهم لها لأنها تتوسط إقليما خصبا ، وتفصله عن النواة المثالية - يحكم الموقع - فى طليطلة جبال الشارات Sierra Morena وفيما فى الميسيتا شبه القاحلة ترتب على ذلك أن كانت أعداد المسلمين قليلة فى جليقية Galicia ^(٢) . وهى أوفر أقاليم أسبانيا ماء ، ومن أخصبها تربة ^(٣) .

1- Le`vi - Provençal : Histoire de l'Espagne Musulmane . Leiden Brill 1950, vol I . pp 83 - 87 .

ويذهب دوزى إلى أن العرب اختصوا أنفسهم بأحسن الأرضين وتركوا للبربر ما عدا ذلك مما كان سببا فى ثورتهم . أنظر :

Recherches Sur l'histoire et la litterature de l' Espagne, Brill 1881 vol . 1 . pp . 218 - 219 .

٢- أخبار مجمعة : ص ٣٩ - ٤٠ .

٣- راجع بشأن جليقية وأنهارها.الإدريسى:المصدر نفسه،ج٧، ص٧٢٧-٧٢٨

وكان يمنع المسلمين من أن يتركزوا بها بعدها أولا وغيومها وبرودتها
ثانيا ، كما أن الأراضي التي تلى جليقيه شرقا وهى أشتوريش Astoria
تحيط بها الجبال كنتبريه Contabria ، وهى جبال شديدة الوعورة ، وكانت
بها بقايا قوطية ، تركها العرب وشأنها .

لذلك تهيأت الفرصة لنصارى الشمال كى توجد لهم نواة صغيرة فى
جبال كنتبريه وتهيأت لهذه النواة فترة حضانة ، بسبب ما جرى من حروب
بين العصابات العربية والبربرية فى أواخر عصر الولاة ، وبسبب ما رافق
هذه الحروب وما جاورها - وهم من البربر - إلى مفارقتها ، بل إن
الكثيرين منهم اجتازوا البحر إلى المغرب (١) .

لم يتردد هؤلاء النصارى من الإفادة بما استجد من متغيرات ،
وتوسعوا بحدود مملكتهم الناشئة ، لتسير هذه الحدود مع جبال كنتبريه فى
امتدادها غربا ، ثم التوانها جنوبا ، لتصل إلى مقربة من نهر المنيو
Mino .

فى عصر الإمارة الأموية ، وبخاصة الشطر الأخير منه ، جرى توسع
آخر ، لعبت فيه الجغرافيا دورا رئيسيا ، فلم تكن توجد حدود واضحة
للأندلس الإسلامية ، مع مملكة أشتوريش - جليقيه (ليون leon فيما
بعد) إنما الذى كان يوجد مساحات واسعة من الأراضي شبه الجرداء ،
وبخاصة فيما كان يعرف عند العرب بألبة Alava والقلاع ، وعرف عند
المسلمين والأسبان - معا - وإن كان فى فترة متأخرة نسبيا - بقشتالة .

١- أخبار مجمعة ص ٦٢ ، ابن عذارى : المصدر نفسه ج ٢ ص ٣٧ - ٣٨ .

عاشت فى هذه المنطقة جماعات هامشية من المسلمين والنصارى، وكان هؤلاء موزعى الولاء قلب، دعتهم المصادر النصرانية -En- aciados^(١)، ويمكن أن ندخل فى هؤلاء بنى قسى - من أمراء الثغر - وهم فى الأصل نصارى أسبان أسلموا ، لكن ولا هم كان يتراوح بين الدولة الإسلامية والدولة النصرانية ، بل بين الإسلام والنصرانية^(٢).

أفاد نصارى الشمال من الحال التى كانت عليها تخومهم مع المسلمين، وشجعوا رعاياهم على الهجرة إليها ، ثم امتد تشجيعهم إلى المستعربين Los Moza`rabes (وهم النصارى رعايا الدولة الإسلامية) ومنحوهم امتيازات ، صدرت بشأنها برامات استقرار -Cartae Popula- tionis ، تملك هؤلاء بموجبها أراضيتهم ، وشرعوا ينشئون عددا من القلاع والأديرة ، وكان من شأن ذلك الامتداد بحدود المملكة النصرانية الناشئة على حساب المسلمين ، وما يجدر ذكره أن سياسة الاستيطان فى مناطق التخوم ، صارت سياسة عامة لدى الممالك النصرانية الأخرى فيما بعد^(٣).

١- ما زالت توجد فى استرمدورا Extremadura قرية تدعى Puebla de

Castro : op. cit. p. 53 .

Naciados أنظر :

٢- تراوج بنوقسى مع ملوك نبرة Navarra وليون ، كما تنصر بعضهم ، أنظر ابن حزم : جمهرة أنساب العرب ، تحقيق عبد السلام هارون ، القاهرة ، دار المعارف ١٩٧١ ، ص ص ٥٠٢ ، ٥٠٣ ، العذرى : المصدر نفسه ص ٢٩ .

٣- Simonet . J : Historia de los Mozarabes de Espana . Madrid

1897 . pp. 502 . 824 - 825 , O`Callaghan :op .cit. pp . 181-182 .

لم يسع المسلمون من ناحيتهم لأن يتعاملوا مع مناطق التخوم على نحو ما تعامل النصارى وإذا كان المظفر العامرى (٣٩٢هـ / ١٠٠٢م - ٣٩٩هـ / ١٠٠٨م) إبان غزاته لبرشلونة فى سنة ٣٩٣هـ / ١٠٠٣م قد شرع فى إصلاح بعض حصونها ، وأغرى المسلمين بسكنائها ، مقابل أن يثبتهم فى الديوان ، ويعطى الواحد منهم المنزل والمحراث ^(١) إلا أن ما فعله المظفر لم يكن قاعدة ، إذ كان المسلمون فى غزواتهم يكتفون بتخريب الحصون والمواقع ، ولم يتحقق استقرار حضرى دائم بها ، مما كان يجعل مقاومة الأجناد المسلمين إزاء هجمات أعدائهم محدودة .

-6-

تركت الطبيعة الجغرافية أثرها أيضا فى أن سكان شبه الجزيرة عاشوا فى مجتمعات صغيرة منعزلة بعضها عن بعض ، تختلف فيها بينها فى أنماط الحياة ودرجات الحضارة وطرائق التفكير ، مما أدى إلى بروز النزعة المحلية أو الإقليمية Regionalisme ^(٢) وصار الولاء للمجتمع الصغير يفوق فى أحوال كثيرة الولاء للمجتمع الكبير ، وهو الدولة الأندلسية (أو الاسبانية) ^(٣).

١- ابن عذارى : المصدر نفسه ، ج٣ ، ص ٧٠ .

٢- فى كتابه الأسبان فى تاريخهم يفرد مينيندث بيدال فصلا كاملا (الرابع ١٧٧ -

٢٠٣) للحديث عن هذه الإقليمية .

٣- بحيث يجوز أن نتحدث عن شعوب أسبانية متعددة ، وليس عن شعب أسباني واحد ، ومن الأمور التى لها دلالتها أن لفظة Espana لا ترد سوى ثلاث =

أعان على تكريس المحلية ما كان يواجه سكان المجتمع الصغير من مشكلات حياتية وبخاصة ما يتصل منها بالماء ، فالأندلس (وأسبانيا على نحو عام) كثيرة الأنهار ، لكنها قليلة المياه ، ويصير الجفاف طابعا عاما فى عمق الميسيتا ، وبخاصة الأراضى التى تقع إلى الجنوب من طليطلة ، حتى جبال المعدن فى إقليمى La Mancha (٢) ، Ex-tremadura (٣) .

وترتبط المياه على نحو عام بالأمطار التى تتفاوت بين عام وآخر ، وكان الفارق بينهما كبيرا فى بعض الأحيان ، وعندما يصف الادريسى (٤) قنطرة قرطبة يقول أن "ارتفاعها فى أيام جفاف الماء وقلته ثلاثون ذراعا ، وإذا كان السيل بلغ الماء منها إلى نحو خلقها " .

هذا التفاوت فى معدلات المياه كان يدفع أفراد المحلة الواحدة لأن يتعاونوا على نحو صارم ، لأن قلة المياه تؤدى إلى الجفاف ، ومن ثم إلى

مرات فى ملحمة السيد وهى الملحمة الأسبانية الكبرى ، وجدير بالذكر أن الحولية المستعربية لسنة ٧٥٤ لا يرد فيها ذكر عن بلاى Pelayo مؤسس الدولة النصرانية ولا عن أذفونش الأول خليفته ، مع أن المستعرب صاحب الحولية عاصر كلا منهما . أنظر: Pidal : op cit p . 183

٢- وإلى هذا الإقليم ينتمى دون كيخوته Don Quijote بطل رائعة ثرينتس Cervantes وفى فيافيهِ دارت أحداث فروسيته الموهومة .

٣- وتعنى حرفيا بلاد الجفاف الشديد .

٤- المصدر نفسه ، ج ٥ ، ص ٥٧٩ .

المجاعة ، وكثرتها تؤدي إلى السيول وتعرية التربة ، ومن ثم (أيضا) إلى المجاعة ، لذلك كانوا يسعون دائما إلى الإفادة المثلى من هذه المياه ، وبخاصة في شرقي الأندلس ، حيث استخدم المسلمون النواعر (واحدھا ناعورة ، وصارت في الأسبانية Noria) لدفع المياه إلى الأراضي الزراعية، وهي ثلاثة أنواع : سانية دَرْلَاب وخطارة ^(١) ، وكانت بعض هذه النواعر كبيرة يصل ارتفاعها إلى تسعين ذراعا ، مثل الناعورة التي يصفها الإدريسي ^(٢) بطليطلة ، وقد شاهد ابن الأبار ^(٣) واحدة منها في بلنسية ، وصفها بقوله :

تقتادنا أقدامنا وجيادنا	لجنابه وهو النضير المعجبُ
كلّفا بدوْلَاب يدور كأنه	فَلْكَ ولكن ما ارتقاه كوكب
نصبته فوق النهر أيد قدرت	ترووجه الأرواح ساعة ينصب
فكأنه وهو الطليق مقيد	وكأنه وهو الحبس مسيب
للماء فيه تصعد وتحد	كالمن يستسقى البحار ويسكب

١- أنظر . وصف ابن العرام الاشبيلي لها في كتابه : الفلاحة نشر Bangueri مدريد ١٨٠٢ ج١ ، ص ٥ .

٢- المصدر نفسه ، ج ٥ ، ص ٥٥١ - ٥٥٢ .

٣- ابن سعيد : المصدر نفسه ، ج ٢ ، ص ٣١٢ تر ٥٥٧ .

كذلك حفر للمسلمون القنوات لتنظيم توزيع المياه وتصريفها ، حتى لا تتحول الأراضي إلى مستنقعات ، وقد دعوها سواق (واحدة ساقية وصارت في الأسبانية Acequia) ويصف العذري ^(١) (ت ٤٧٨هـ) إحداها تخرج من نهر تدمير Tudmir ، وتقرى بقرى مرسية وأريولة Or-ihuela وطولها ثمانية وعشرون ميلا .

وقد حظيت السواقي بعناية حكام الأقاليم ، ينسب إلى المعتصم بن حماد التجيبي (٤٤٤هـ / ١٠٥٢م - ٤٨٠هـ / ١٠٨٧م) صاحب المربة أنه حفر في سنة ٤٥٨هـ / ١٠٦٠م ساقية وصلت إلى جامع المربة ، والرياض المجاورة ^(٢) ، وعندما سقطت بلنسية في يدى جاقمة Jaimi l. (١٢١٣ - ١٢٧٦م) في سنة ٦٣٦هـ / ١٢٣٨م كان بها ثمان سواق اختص الملك بواحدة منها ، وعندما أباحها خليفته للمزارعين ، فانه تقاضى منهم مبلغا كبيرا " ^(٣) .

استجاب الأندلسيون لتحديات البيئة مما أفضى إلى نهضة زراعية أثارت إعجاب ابن حوقل ^(٤) عندما زار الأندلس في سنة ٣٣٧هـ / ٩٤٨م ، وقد انتقلت هذه النهضة مع المهاجرة الأندلسيين إلى بلاد المغرب بحيث صار " لا يستعمل بلدى ما وجد أندلسى " ^(٥) .

١- المصدر نفسه ، ص ١ .

٢- المصدر نفسه ص ١ .

3- Imamuddin . op cit p . 77

٤- صورة الأرض . بيروت ، مكتبة الحياة د.ت (عن طبعة ليدن ١٩٣٨) ص ١٠٤ .

٥- المقرئ : المصدر نفسه ، ج ٣ ، ص ١٥٢ .

يتضح لدينا أن أفراد المحلة الواحدة كان عليهم أن يتعاونوا ، من أجل أن يحققوا الحياة الاقتصادية المشتركة ، ولم يكن اختلاف الدين بين هؤلاء الأفراد يشكل عقبة إزاء هذا التعاون ، ومع تكرار التعاون يتنامى الاحساس بالانتماء إلى مجتمع المحلة على نحو أساسي .

إذا كان هذا التعاون - ومن ثم الانتماء - ضروريا في الأحوال العادية، فإنه يصير أكثر ضرورة لدى اضطراب عناصر الطبيعة فالأمطار- وهي المصدر الوحيد لمياه الأنهار - لم تكن منتظمة دائما وإنما كانت تتراوح بين سنة وأخرى ، وإذا اتخذنا القرن الثالث الهجري كعينة ، فإنه في سنة ٢١٢ هـ تسببت السيول في تخريب أكثر الأسوار بالشعر ، وخربت قنطرة سرقسطة ^(١) ، وفي سنة ٢٣٥ أذهب السيل بست عشرة قرية عند اشبيلية ، وهلك كل ما بها من ناس ويهائم وأمتعة ، كما حمل نهر تاجه Tagus ، وأذهبت بثمانى عشرة قرية ، وصار عرضه ، فيما يروى - ثلاثين ميلا ^(٢) ، أما سيل سنة ٢٢٢ فكان يؤرخ ^(٣) به وتسبب السيل في سنة ٢٨٨ وفي سنة ٢٩٠ في الأضرار بقنطرة قرطبة ^(٤) ، وعد السيل بنهر قرطبة في سنة ٢٩٦ من أمهات السيول الطامية ^(٥) .

١- ابن الأثير : الكامل في التاريخ ، بيروت، دار صادر ١٩٨٢ ، ج٦ ص ٤٠٨ .

٢- ابن حيان : المصدر نفسه س ٢ ص ٥ ؛ ابن عذارى : المصدر نفسه ، ج ٢ ص ٨٩ .

٣- ابن الفرضى : المصدر نفسه ، ج ٢ ، ص ٥ تر ١١٠٢ .

٤- ابن حيان : المصدر نفسه ، س ٣ تحقيق اسماعيل العربي ، المغرب دار الآفاق الجديدة ، ١٩٩ ، ص ١٦١ .

٥- ابن حيان : المصدر نفسه ، س ٣ ص ١٦٦ .

فى المقابل كان الغيث يحتبس أحيانا ، وتمحل الأرض وتعم المجاعة ،
 ففى سنة ٢٠٧ هـ ذهب خلق كثير فى المجاعة وارتفعت الأسعار ، وبلغ
 سعر المد من القمح فى بعض البلاد ثلاثين دينارا ^(١) وفى سنة ٢٣٢ هـ عم
 القحط البلاد كلها وهلكت المواشى واحترقت الكروم وكثر الجراد ^(٢) ، ثم
 توالى المجاعة معظم سنوات الخمسينات ^(٣) ، إلى أن بلغت ذروتها فى
 سنة ٢٦٠ هـ ، ومات - كما يروى - أكثر الناس ، وصارت هذه المجاعة
 مثالا ^(٤) ، وفى سنة ٢٨٥ هـ عادت المجاعة ^(٥) ، ثم اشتدت فى سنة
 ٢٩٧ ، وعبر كثير من الناس البحر إلى العدو ، وعرفت هذه السنة بسنة
 جوع جيان Jaen ^(٦) .

وكان الاستسقاء من الأمور المهمة ، وخصص له فى عصر الإمارة
 مصليان بقرطبة ^(٧) ، وعندما قحط الناس فى أواخر عهد الناصر ، أمر
 قاضيه منذر بن سعيد بالبروز للاستسقاء ، فتأهب لذلك وصام ثلاثة

- ١- ابن الأثير : المصدر نفسه ، ج٦ ، ص ٣٨٤ .
- ٢- ابن حيان : المصدر نفسه ، س٢ ، ص ١ ، ٩٣ : ابن عذارى : المصدر نفسه ، ج٢ ، ص ٨٩ .
- ٣- ابن حيان : المصدر نفسه س٢ ، ص ٣٢١ ، ٣٢٤ ، ابن الأثير : المصدر نفسه ، ج٧ ، ص ١٩٠ .
- ٤- ابن القوطية : المصدر نفسه ص ١٠٠ ، ابن حيان : المصدر نفسه ، س٢ ص ٣٤٣ .
- ٥- ابن حيان : المصدر نفسه س٣ ، ص ١٥٠ .
- ٦- المصدر نفسه ، ص ١٦٨ .
- ٧- ابن حيان : المصدر نفسه س٢ ص ٤٦ ، ٤٧ .

أيام، واجتمع الناس في مصلى الریض ، بارزین إلى الله تعالى ، وشاركهم الخليفة الدعاء والضراعة ، وأخذ يبکی وقد ارتدى ملابس خشتة، ثم خرج القاضي نحوهم متضرعا خاشعا وبکی وخطب فضج الناس بالدعاء ، ولم یکد يتم خطبته حتى بللهم الغیث ^(١).

إلى جانب هذا الاضطراب الناشئ عن تراوح مياه الأمطار ، فان بلاد الأندلس كانت تجتاحها أحيانا عواصف هوجاء وبروق ورعود ، صارت ظاهرة عامة خلال ثلاثة سنوات من حکم المستنصر ٣٦٠ - ٣٦٣ هـ ^(٢)، إلى جانب الزلازل ، ولدينا خبر عن اثنين أحدهما في سنة ٣٦٢ هـ ^(٣) والآخر في سنة ٣٦٤ هـ ، وقد عم هذا الزلزال الأخير معظم أنحاء الأندلس ^(٤).

هكذا نلاحظ أن ظروف المناخ كانت تعين على تكريس المحلية، عند أهل الأندلس (وأسبانيا)، وكان يعين على تكريسها كذلك صعوبة المواصلات بين أقطار الأندلس بعضها وبعض وكذا بينها وبين الحاضرة قرطبة .

١- ابن خاقان : مطمح الأنفس ، تحقيق محمد علی شوابكة ، بيروت ، دار عمار

١٩٨٣ م ص ص ٢٤٦ - ٢٥١ .

٢- ابن حيان : المصدر نفسه س الحكم المستنصر ص ص ٦٦ ، ٦٧ ، ٧٢ ، ٧٣ ،

١٠٠ ، ١٠١ ، ١٤٥ ، ١٥٤ .

٣- المصدر نفسه : ص ١٠٧ .

٤- ابن حيان : المصدر نفسه ، ص ٢٠٢ .

ولما كانت أنهار الأندلس غير صالحة للملاحة في معظم شهور السنة ، كان يستعاض عنها بالطرق البرية ، والحق أن السبق يعود إلى الرومان الذين برعوا في إنشاء هذه الطرق التي صارت تدعى *Viae Romanae* ، وتابعهم المسلمون في هذا المجال ، وكانت للمدن الرئيسية أبواب ، تبدأ عندها طرق تؤدي إلى مدن أخرى مجاورة ^(١).

كان يدنى من خطر هذه الطرق سلاسل الجبال الوعرة التي تخترق الميسيتا الأسبانية صفوقا متتابعة ، كما تنهض لدى السواحل ، والأسبان يطلقون عليها تعبير *Sierra* ويعنى - حرفيا - منشارا ، وهو معنى له دلالة ، وبعض هذه الجبال كان غاية في الارتفاع إلى حد أن أحدها - وهو جبل الثلج - الذي يحتضن مدينة غرناطة كان يرى من عدوة البحر ^(٢).

كذلك فإن الأنهار المستعرضة غالبا كانت تدنى بدورها من خطر هذه الطرق ، وحاول المسلمون حل هذه المشكلة - بابتناء قناطر على ما يصادفهم من أنهار . وتنسب إلى المنصور بن أبي عامر واحدة منها ، استغرق انشاؤها على نهر قرطبة سنتين ٣٨٧ - ٣٨٩ ، وكلفت الدولة مبالغ باهظة ، كما ابتنى قنطرة أخرى على نهر استجة *Ecija* ، وهو نهر شنيل *Jenil* ^(٣) .

١- حسين مؤنس : تاريخ الجغرافية والجغرافيين في الأندلس ، مدريد ، معهد الدراسات الإسلامية ١٩٦٣م ، ص ٢٨٤ وما بعدها .

٢- البكري : المصدر نفسه ، ص ٨٥ .

٣- ابن عذاري : المصدر نفسه ، ج ٢ ، ص ٢٨٨ .

بيد أن هذه القناطر كانت تخضع لتقلبات النهر ، كما كانت تتأثر بالسيول ، مما كان يقتضى عناية خاصة ، وهو أمر لا يتوافر فى جميع الأوقات .

واستدعت المحلية بطبيعة الحال وجود نواة حضرية أو أكثر من نواة تساهم أو تشارك فى تنظيم مجتمع المحلة الواحدة ، والحق أن ظاهرة المدينة سابقة على قدوم العرب ، وكانت البلدية فى العصر الرومانى تشمل النواة وهى المدينة ، وحواليها إقليم ريفى مترام *Territorium* ، يضم قرى كثيرة وضياعا ، وتحكم البلدية مشيخة *Curia* من مائة عضو يختار منهم كبار الموظفين ^(١).

تدهورت ظاهرة المدينة فى عصر القوط ، لكن المسلمين أحيوها ، وجعلوها أساس التنظيم الإدارى فى البلاد ، وكانت الكورة تتبعها ، بخلاف ما كانت عليه الحال فى المشرق ^(٢) ، وكانت المدن من العدد والسعة بحيث لفتت انتباه الجغرافيين العرب ، فيذكرون أن المسافر لا يتزود حيث سلك لكثرة ما يتلقاه من مدن فى سفره ، فربما لقى فى اليوم الواحد أربع مدائن عدا القرى والمعازل والحصون ^(٣).

1- O'Callaghan . op cit . p . 30 .

٢- حسين مؤنس : فجر الأندلس ، ص ٥٣٧ .

٣- المقرئ : المصدر نفسه ، ج ١ ، ص ٢٢٦ .

وترتبط المدن بالحصانة ، فكانت لك Lugo في العصر الروماني تضم ثمانين إلى تسعين برجاً ، وكذا كانت أسترقة Astorga وليون وسرقسطة^(١) ، وفي العصر الإسلامي كانت طليطلة تقع على منحدرات عالية ، تمتد حتى ضفاف التاجية ، ويدل ما تبقى من أسوارها على منعته الفائقة^(٢) ، ومع أن أذفونش السادس (١٠٦٥ - ١١٠٩م) عاش فيها فترة إبان عصر الطوائف " وعرف من أين يؤتى البلد ، وكيف الطريق إلى ملكه " إلا أنه حين أراد أخذها حاصرها سبع سنوات^(٣) .

ومن الأمور التي لها دلالتها أن اسم قشتالة نفسه مشتق من قلعة وكذا حال قطالونية . وكان من سياسة الدولة في حروبها ، داخل حدود الأندلس وخارجها ، أنها كثيراً ما كانت تهدم أسوار سرقسطة في سنة ٣٣٦ هـ / ٩٤٧ م^(٤) ، فان المسلمين لم ينجحوا في هدم أسوار ليون في سنة ٢٣١ هـ / ٨٤٦ م^(٥) .

١- Livermore , H . W : The Origins of Spain and Portugal London Allen 1971 p . 43 .

٢- محمد عبدالله عنان : الآثار الأندلسية الباقية . القاهرة ، الخانجي ، ١٩٦١ ص ٨٠ .

٣- ابن الأثير : المصدر نفسه ، ج ١٠ ، ص ١٤٢ .

٤- العذري : المصدر نفسه ، ص ٢٩ .

٥- ابن الأثير : المصدر نفسه ج ٧ ، ص ٢٤ ، المقرئ : المصدر نفسه ج ١ ، ص ٢٤٦ .

كان لهذه المحلية حسنها ، فقد أعانت على خلق المنافسة بين المجتمعات الأندلسية بعضها وبعض ، مما أفضى عن نتائج طيبة فى الأدب والعمارة ، وغير ذلك من فنون الحضارة ، لكنها فى الوقت نفسه أعانت على أن جعلت أفراد المجتمع الصغير ، يكتسبون عادات وقيما وسلوكا بل ولغة ، يختلف بدرجة أو بأخرى عن مجتمع آخر ، ربما يكون مجاورا لهم ، وينوه ابن حزم بأن " من سمع لغة أهل فحس البلوط (Pedroche) وهى على ليلة واحدة من قرطبة كاد أن يقول أنها لغة أخرى غير لغة أهل قرطبة " (١). وكان القاضى سعيد بن سليمان الغافقى (ت. ٢٤٠هـ) بحكم انتمائه إلى هذه المدينة يرتدى زيا مختلفا عن زى أهل قرطبة ، مما كان مدعاة ، لأن يتندروا عليه ويعايروه ، لكنه رد عليهم : " يا معشر الخصوم غيرتمونى بأنى بلوطى ، إنما أشهد على نفسى بأنى بلوطى ، عودوا لله صليب لا تغلوا فيه " ثم حلف ألا يخاصمو عنده سنه (٢).

على أن هذه المحلية كانت تتطرف إلى أن تعبر عن نفسها بالتعددية السياسية .

ترتبت على المحلية مشكلة أكبر هى التعددية السياسية ، فالأندلس (واسبانيا كذلك) لم تكن دولة واحدة فى فترات طويلة من تاريخها أو

١- الأحكام . تحقيق أحمد محمد شاكر ، القاهرة ، الخانجي ، ١٣٤٥هـ ، ج١ ، ص ٣١ .

٢- الخشى : قضاة قرطبة ، القاهرة ، الدار المصرية للتأليف والترجمة ص ٦٣ .

أنها كانت ممزقة تحت سيادة إسمية فى فترات أخرى ، والفترة النموذجية التى حظى خلالها الأندلس باستقرار سياسى واضح وهى فترة الخلافة (عصر الناصر والمستنصر والدولة العامرية تحديدا) لايتعدى فى مجمله مائة عام (٣٠٠ - ٣٩٩هـ) .

بعد الفتح بسنوات نشأت نواة الدولة النصرانية فى قاصية الشمال على يدى بلاى ، ولم تلبث أن امتدت حدودها على حساب المسلمين ، لتضم مع الدويلات النصرانية الأخرى مساحة تعدل ربع مساحة الجزيرة ، وحاولت الدولة فى عصر بنى أمية أن تتلمس حلا لهذه المشكلة عن طريق غزواتها التى كانت تتابع كل عام أو بضعة أعوام ، وعادة ما كانت هذه الغزوات تبدأ فى الربيع بعد ذوبان الثلوج ، وتنتهى قبل أن ينته الصيف، لذا كانت تسمى صوائف .

ولما كانت الجبهة بعيدة عن مركز الدولة الإسلامية بقرطبة ، فان هذه الدولة فى عصر الناصر وخلفائه ، صار لها جيشان ، جيش الحضرة ومستقره قرطبة ، وجيش الثغور ومستقره مدينة سالم Medina celi بالثغر الأوسط .

وأفادت هذه الغزوات فى تثبيت الحدود بين دار الإسلام ودار الحرب أحيانا ، وفى دفعها لحساب دار الإسلام فى أحيان أخرى^(١) ، على أنه لدى الفرقة التى أصابت الأندلس فى عصر الطوائف بدأت هذه الحدود تتراجع لحساب دار الحرب .

١- وبخاصة فى عصر المنصور بن أبى عامر .

وليس من شك في أن الطبيعة الجغرافية لعبت دورا أساسيا في أن صار هذا الصراع سجلا بين المسلمين والنصارى ، وفي كتاب الناصر بعد هزيمته في الخندق Alhandega في سنة ٣٢٧هـ / ٩٣٩م يشير إلى "خنادق وعرة ومهاوى تتقاذف وأجراف منقطعة قد عرفها المشركون وقدموا إليها" (١).

على أن هذه التعددية تتخذ نحوا " أكثر خطرا " داخل حدود الأندلس ذاتها ، فالعصبية المحلية والشخصيات الكبيرة كانت تمكن لنفسها في كثير من الأحيان ، وبخاصة في مناطق الشغور وقد يتحد هؤلاء في حالات معينة مع أعداء الدولة بالممالك النصرانية ، وهذه ظاهرة عامة متواترة ، صاحبت الوجود الإسلامي في الأندلس ، بل إننا نشاهدها غير مرة في عصر الخلافة ذاته (٢) ، وهو أزهى عصور هذا الوجود .

ولا يخفى أن الشوار المنتزعين أفادوا بوعورة أقاليمهم ، وانقطاعها واكتفائها بنفسها لآماد متطاولة فضلا عن وفرة القلاع وحصانتها ، وتعذر سبل الوصول إليها ، كما أفادوا من المناخ الذي كان يهيئ الفرصة لحفظ مئونة المدن وطعامها لسنوات طويلة (٣).

١- ابن حيان : المصدر نفسه ، ص ٥ ، ص ٤٤٢ .

٢- مثل ثورة محمد بن هاشم التجيبي ضد الناصر بسرقة وتحالفه مع النصارى .

٣- البكري : المصدر نفسه ص ٨٨ ، العذري : المصدر نفسه ص ٢ وقد برع الأندلسيون في ابتكار الوسائل لحفظ الطعام كالحبوب ، راجع في هذا الشأن ابن العرام : الخلافة الباب السادس عشر (٦٦٠ - ٩٨٩) .

ومن الأمور التي لها دلالتها أن حرب العصابات Guernilla تعبير أسباني ، يعنى حرباً صغيرة ، وقد برع أهل الأندلس (والأسبان أيضاً) فى هذه الحروب الصغيرة ، كانت سياسة الدولة إزاء هؤلاء الشوار أنها كانت تحارب الثائر إلى أن يقر بطاعتها ، فتبقيه حيث هو على أن تأخذ رهائنه ، وقد يكونوا بعض ولده ، فضلاً عن قطع من المال ، يؤديه كل عام (أو لا يؤديه) وأحياناً كانت تستنزله من حصونه ، فيأتى إلى قرطبة وتكرمه ، وقد يصير فى قوادها وكبار رجالها .

عاشت البلاد ستين سنة فى فتنة متصلة ، بدأت فى عهد الأمير محمد ، وتمادت فى عهد ولديه المنصور عبد الله ، حتى مطالع عهد الناصر ^(١) ، واستبد بالبلاد نيف وعشرون ثائراً ، اتخذ بعضهم هيئة الملوك ، وصار لهم قضاة وأصحاب شورى وكتاب عمل ، وانتجعهم الشعراء من أقطار الأندلس ، وبلغت الحال بالدولة إلى أن صارت سلطتها لا تتعدى فى أحيان كثيرة أسوار الحضرة .

على أن الحال اختلفت فى عصر الطوائف ، لسبب هو أنه لم تعد هناك دولة ، إنما مجموعة من الدول نيفت على العشرين ، وتسمى أصحابها بالملوك .

يقول الشاعر ^(٢) :

١- تشغل هذه الفتنه معظم صفحات السفر الثالث من أسفار المقتبس لابن حيان.

٢- ابن الخطيب : أعمال الأعلام ، ص ١٤٤ .

مما يزهدي في أرض أندلس ألقاب معتضد فيها ومعتمد
 ألقاب مملكة في غير موضعها كالهَرُّ يحكى انتفاخا صولة الأسد
 وتمثل الطوائف حالا مثالية للتعددية ، دفعت إلى عدم التوحد أمام
 العدو النصراني الواحد ، وإلى انصراف كل مملكة لشأنها ، ولم يهتم
 الملوك بتهديد أذفونش لطليطلة ، رغما عن الدعوة التي عمت أقطار
 الأندلس نحو الاتحاد ، ولم يتم هذا الاتحاد ، إلا بعد أن فات الأوان
 وسقطت طليطلة ثم أنه تم على نحو واه ، مما دفع المرابطين إلى إزالة معظم
 الطوائف .

أما في عصر المرابطين ثم الموحدين ، فلم تعد الأندلس أبدا إلى الحال
 التي كانت عليها في عصر الخلافة ، وتناوشها الشوار في شرقيها
 وغربيها ، بل أن بعضهم كابن غانية عبر البحر إلى إفريقية ليتسبب في
 مشكلة مزمنة أسهمت في العصف بدولة الموحدين بعد ذلك ^(١) .

وعندما صار الأندلس دولة صغيرة في غرناطة ، فإنه لم يعدم
 حركات انفصالية بدأت منذ بداية عهدها ^(٢) ، وتمادت حتى قريب من
 سقوطها ^(٣) .

١- أنظر في شأن ثورة بني غانية القسم الثاني من العصر الثالث من دولة الإسلام
 في الأندلس لعنان .

٢- فتنة بني أشقيلولة بمالقة Malaga .

٣- فتنة أبي عبد الله الزغل في وادي آش .

بطبيعة الحال فإن التعددية السياسية هذه ، كان لها أثرها الواضح بل الفادح فى نهاية دولة الإسلام فى الأندلس ^(١).

ومع أننا لانوافق دائما على مقولة أن العطاء الحضارى يتلازم طرديا مع الفرقة السياسية ، إلا أننا نلاحظ أن هذا العطاء بدأ على نحو أساسى مع بداية عصر الطوائف وما تلاه ، فكان الملوك يبنون العمائر الفخمة والمساجد والقصور والمدارس ، ويستقدمون العلماء والشعراء وغيرهم ويحسنون اليهم ، وصارت لبعضهم خزائن كتب عامرة ، بل أن منهم من شارك فى الحركة الفكرية .

فى عبارة قوية يقول المؤرخ المعاصر ابن حيان ^(٢) عن مجاهد العامرى صاحب دانيه :

١- ومن عجب أن التعددية السياسية فى الأندلس ، لم تعدم نظيرا لها فى اسبانيا النصرانية فقد رافقتها هذه التعددية منذ بداية تاريخها ، ويقارن كاسترو بين حال أسبانيا النصرانية ، فى منتصف القرن الثالث عشر وما تلاه بحال الأندلس فى منتصف القرن الحادى عشر وما تلاه وترك ذلك أثره على الريبكونكيستا (حركة الاسترداد) التى تدنى زخمها حتى بداية عصر فرناندو وايسابيل
op. cit. p . 47

ونشاهد اليوم آثار هذه التعددية فى أقاليم قطالونية وجليقية واليكشنى ، حيث تتوافر ميول حادة نحو الاستقلال ، عبرت عن ذلك تعبيرا قويا ابان الحرب الأهلية ١٩٣٦ - ١٩٣٩ م . أما البرتغال ، فقد حققت هذا الاستقلال منذ بعيد .

٢- ابن بسام : المصدر نفسه ، ق ٣ م ١ ص ٢٣ ، وانظر أيضا ابن عذارى : المصدر نفسه ، ج ٣ ، ص ١٥٦ ، باختلاف يسير .

كان مجاهد فتى أمراء دهره ، وأديب عصره لمشاركته فى علم اللسان ، ونفوذه فى علم القرآن ، عنى بذلك منذ صباه وابتداء حاله ، إلى حين اكتهاله ، ولم يشغله عن التزيد عظيم ما مارسه من الحروب برا وبحرا حتى صار فى المعرفة نسيج وحده ، وجمع من دفاتر العلوم خزائن " كان جمه ، وكانت دولته أكثر الدول خاصة وأسراها صحابة ، لانتحاله العلم والفهم ، فأمه جلة العلماء ، وأنسوا بمكانه ، وخيموا فى ظل سلطانه ، واجتمع عنده من طبقات علماء قرطبة جملة وافرة وحلبة ظاهرة ... "

-8-

تركزت الجغرافية أثرها الفاعل فى السمات العامة للشخصية الأندلسية، فصارت هذه الشخصية عنيفة وعنيدة ، وكان يؤجج من العنف والعناد معا مجاورة الأندلس لممالك نصرانية ، كان همها طرد المسلمين منذ البداية ، على أن هذه الطبيعة العنيفة العنيدة ، لم تكن تجعل للمعارك فى غالب الأحوال نتائج حاسمة على مسار الصراع بين المسلمين بعضهم وبعض ، وكذا بين المسلمين والنصارى ، ففى الخندق سحق جيش الناصر ، ونجا هو بأعجوبة فى نفر يسير ، وامتنع بعد ذلك عن أن يقود جيوشه بنفسه ، ومع ذلك ففى المعارك التالية للخندق ، قتل من النصارى ضعف من قتل من المسلمين ^(١) . ومن الممكن أن يقال الشئ نفسه عن معارك أخرى كبيرة كالزلاقة Sagrajas ، والأرك Alarcos ، وإلى حد ما العقاب .

كذلك نجد لهذه الطبيعة صدى فى ثورة بنى غانية وحروبهم المتصلة مع الموحدين فى الأندلس ، ثم مطاردتهم لهم فى عقر دارهم بأفريقية ، فكانوا من أسباب ضعفهم وذهاب دولتهم .

وإذا كان الموريسكوس قد عاشوا فى زمان ، كانت الأندلس قد ذهبت ، فانهم حاربوا فى جبال البشرات Alpujarras معركة يائسة ، دامت ثلاث سنوات ، وأفشلوا جهود عدد من القادة الأسبان ، حتى مقدم دون خوان Don Juan de Austria ^(١) .

وفى غير أوقات الحرب كانت هذه الطبيعة تجد مجالا فى الشغب على أصحاب السلطان وهو ما يتضح فى تعرض عامة قرطبة للأمير الحكم (١٨٠ هـ / ٧٩٦ م - ٢٠٦ هـ / ٨٢٢ م) وجرأتهم عليه بالأذى والسباب وتصفيقتهم بالأكف . وكانت ثورتهم ضده فى سنة ٢٠٢ هـ / ٨١٨ م رهيبة ، ألجأته - بعيد قمعهم - إلى نفيهم وهدم ريعهم ، واتخذ حيلته بعد ذلك ، فاستكثر من العبيد والخدم والسلاح ، يتناوبون الحراسة على أبواب قصره ، وعندما حل قسم من هؤلاء المنفيين بالأسكندرية ، أثاروا الفوضى بها ، وأقحموا أنفسهم فى الصراعات بين الأجناد العرب إلى أن تم طردهم إلى اقريطش (كرت) ^(٢) .

Castro : op. cit , p. 57 .

-١-

٢- وردت أخبار هذه الثورة (أو الهيج بمصطلح العصر) فى مصادر عديدة منها ابن القوطية : المصدر نفسه ص ٦٨ - ٦٩ ، ابن الأبار : المصدر نفسه ج ١ ، ص ٤٤ - ٤٥ تر ١٠ ابن عذارى : المصدر نفسه ج ٢ ، ص ٧٥ - ٧٦ ، ابن تغرى بردى النجزم الزاهرة ، القاهرة ، ١٩٢٩ ، ج ٢ ، ص ١٥٨ .

واجتمعت لدى المنصور بن أبى عامر خبرة بهذه الطبيعة ودرية ، وكان من عادته أن يطيل السهر ، وعندما سأله أحد فتيانه أجابه : يا شعلة !! حارس الدنيا لا ينام ، إذا نامت الرعية لو استوفيت نومى ، لما كان فى دور هذا البلد عين نائمة ^(١).

استمرت ظاهرة الشغب هذه مصاحبة للشخصية الأندلسية عبر العصور، ويشير ابن سعيد ^(٢) إلى شطارة عامة قرطبة وكثرة شرهم ، وكيف كانوا يظهرون على المباني المشيدة ، ويفتحون الأغلاق الصعبة ، ويقتلون صاحب الدار ، وكيف كان أهل الأندلس - بوجه عام - يثبون على السلطان إذا وجدوا منه تهاونا ، ولا يعبأون بخيله ورجله ، وكذا كانت حالهم مع القضاة والولاة .

ويروى ابن سعيد ^(٣) عن أبيه ، أنه لما انفصل السيد أبو يحيى أخو السلطان يعقوب المنصور (٥٨٠هـ / ١١٨٤م - ٥٩٥هـ / ١١٩٩م) عن ولاية قرطبة سئل : كيف وجدت أهل قرطبة ؟ قال : مثل الجمل إن خفت عنه الحمل صاح ، وإن أثقلته صاح . ما ندرى أين رضاهم فنقصده ، ولا أين سخطهم فنجتنبه ، وما سلط الله عليهم حجاج الفتنة ، حتى كان عامتها شرا من عامة العراق ، وإن العزل عنها ، لما قاسيته من أهلها عند ولاية ، وإنى إن كلفت العود إليها لقاتل : لا يلدغ المؤمن من جحر مرتين".

١- ابن الخطيب : أعمال الأعلام ، ج٢ ، ص٧٦ ، ابن عذارى : المصدر نفسه ، ج٢ ، ص٢٨٩ ، باختلاف يسير .

٢- المقرئ : المصدر نفسه ج١ ، ص٢١٩ - ٢٢٠ .

٣- المقرئ : المصدر نفسه ج١ ، ص١٥٤ - ١٥٥ .

وإزاء التوتر العام الذى كان يسود الأرض والبشر كانت الشخصية الأندلسية موزعة بين التطرف فى اللهو وطلب متاع الدنيا ، وبين التطرف فى الزهد والانصراف عن هذا المتاع .

يقول المقرئ (ت ٤١ - ١هـ) ^(١) " ومع كون أهل الأندلس سباق حلبة الجهاد ، إلى داعيه من الجبال والوهاد ، فكان لهم من الترف والنعيم والمجون ومداراة الشعراء خوف الهجاء محل وثير المهاد " .

عرف عن الأندلسيين جهم للغناء ، وكان أهل بلنسية ينفقون الأموال الطائلة فى اقتناء المغنيات ^(٢) ، والموشحات إنما وضعت لتغنى ، ومعظمها يدور فى موضوعات اللهو والخمر ووصف الطبيعة ^(٣) ، كما أن الخرجات ^(٤) تقال كلها تقريبا على لسان فتاة تتغزل فى فتى ، وتعلنه بحبه وشوقها ، وهذا لانظير له فى الشعر العربى كله ^(٥) .

١- المصدر نفسه ، ج ١ ، ص ١٩٠ .

٢- العذرى : المصدر نفسه . ص ١٨ .

٣- أحمد هيكل : الأدب الأندلسى من الفتح إلى سقوط الخلافة ، القاهرة ، دار المعارف ١٩٧٩ ، ص ١٤٣ .

٤- وهى القفل (الجزء) الأخير من الموشحة .

٥- عبد العزيز الأهوانى : الزجل فى الأندلس ، القاهرة ، معهد الدراسات العربية العالية ١٩٥٧ ، ص ١٨ .

وإذا كان مالك - رضى الله عنه - أشد فقهاء السلميين على الخمر وشاربيها ، فان عددا من علماء الأندلس - وهم أساساً مالكية - كانوا يذهبون فى الأشربة مذهب العراقيين ^(١).

يقول أحمد بن عبد ربه (ت ٣٢٩هـ) صاحب العقد ^(٢):

ديتنا فى السماع دين مد سنى وفى شربنا الشراب عراقى

وعرف عن غير هؤلاء من قضاة الأندلس ، أنهم كانوا يتغافلون عن السكرارى ويتغاضون، مثل القاضى محمد بن زياد اللخمي (ت ٢٤٠هـ) ^(٣) والقاضى أحمد بن بقرى بن مخلد (ت ٣٢٤هـ) ^(٤) والقاضى محمد بن أبى عيسى (ت ٣٣٩هـ) ^(٥)

ويعلق الخشنى (ت ٣٦١هـ) ^(٦) على هذا بقوله: وما أتى عن القضاة فى هذا المعنى خاصة من الإغضاء عن السكرارى والتغافل لهم والدقة عليهم ،

١- ابن الفوضى : المصدر نفسه ، ج ٢ ، ص ٥ تر ١١٠٢ ، ص ٢١ تر ١١٤٩ .

٢- الثعالبى : بتيمة الدهر . تحقيق محمد محى الدين عبد الحميد ، القاهرة ، مكتبة الحسين التجارية ، ١٩٤٧ ، ج ٢ ، ص ٩ .

٣- الخشنى : المصدر نفسه ، ص ٥٨ - ٥٩ .

٤- المصدر نفسه ، ص ١١٢ - ١١٤ .

٥- ابن خاقان : المصدر نفسه ، ص ٢٦٥ - ٢٦٦ ، التباهى : المصدر نفسه ، ص ٦٠ - ٦١ .

٦- المصدر نفسه ، ص ٥٩ .

فلا أعرف لذلك وجهها من الوجوه ، يتسع لهم فيه القول ، ويقوم لهم به العذر ، إلا وجهها واحدا ، وهو أن احد السكر - من بين الحدود كلها - لم ينصه الكتاب المنزل ، ولا أتى فيه حديث ثابت عن الرسول صلى الله عليه وسلم "

أما عن الزهد فانه وإن كان نزوعا طبيعيا فى النفس الإنسانية ، ويصدر أحيانا عن دواعى الشيخوخة ، فانه كان ظاهرة تتنامى طرديا ، مع تنامى ظاهرة الترف ، أو إذا حدثت نكبة سياسية فى الداخل ، أو هزيمة عسكرية فى الثغور ، ونتلمس ظاهرة الزهد هذه على نحو واضح ، عندما اختل أمر الأندلس واختلف ، مع بزوغ عصر الطوائف ، ونلاحظه فى شعر ابن العسال (ت ٤٨٧هـ) وهو يبكى سقوط بربشتر ثم سقوط طليطلة ، وفى شعر السميسر ، الذى وصلت به الحال فى زهده إلى إساءة الظن بالناس وإيثار الابتعاد عنهم ، بل وهجائهم ^(١).

يقول (٢) :

تحفظ من ثيابك ثم صنها	وإلا سوف تلبسها حدادا
وميز عن زمانك كل حين	ونافر أهله تسد العبادا
وظن بسائر الأجناس خيرا	وأما جنس آدم فالبعادا

١- راجع فى هذا الشأن إحسان عباس : تاريخ الأدب الأندلسى ، عصر الطوائف والمرابطين ، بيروت ، دار الثقافة ، ١٩٨٥ ، ص ١٣٠ ، ١٣٥ - ١٧٩ .

٢- ابن بسام ، المصدر نفسه ، ق ١ م ، ص ٨٩٥ .

ولا يخفى ما للزهد من صلة - فى بعض الأحيان - بالتصوف ، وللأندلس فيه باع كبير ، وبحضرنا مثال محى الدين بن عربى (ت ٦٣٨هـ) ، وكتابه الفتوحات الملكية .

وإذا كانت البيئة تميل بطبيعتها إلى التعدد ، فإنها تركت أثرها فى نزوع الأندلسى إلى الفردية ، والفردية العارمة تحديداً ^(١) ، ولنلمس ذلك فى سعى الأندلسى إلى تضخيم ذاته ، والأندلسيون مغرمون بتكبير الأسماء ، وهم عندما يريدون أن يصغروا الاسم بعد أن يكبروه ، يقولون عبدون وعبيديس ، وكان ممكناً أن يصغروا الاسم الأصلى فيصير عبيد ، وقد لاحظنا أن عبد الرحمن الناصر تلقب بالخلافة فى سنة ٣١٦هـ / ٩٢٩م ، وكانت خلافته هذه تضم الأندلس فحسب ، ولم تكن خيله قد تطرقت بعد إلى المغرب ^(٢) ، وفى مطالع القرن الخامس الهجرى تسمى بالخلافة أربعة رجال فى مسافة ثلاثة أيام ، وصار يخطب لهم فى زمن

١- يذهب مينيديث بيدال إلى أن السبب فى استبداد قشتالة فيما بعد بسائر شبه الجزيرة ، أن الفردية كانت أظهر فى شعبها بين سائر الشعوب الإسبانية

op. cit . p. 179.

٢- نلاحظ ذلك أيضا فى أسبانيا النصرانية ، فقد تسمى أذقرنش الثالث (٨٦٦

- ٩١٠م) ملك ليون بالإمبراطور العظيم Magnus imperator ولم يكن حجم مملكته يسمح بذلك ، كما أن حفيده أوردن الثالث Ordone (٩٥١ - ٩٦٦م) دعا أسقف شنيثاقب بالحبر الأعظم للعالم بأسره .

Castro , op. cit , p . 109 , Pontife de todo el Orbe .

واحد ، الأمر الذى اعتبره ابن حزم^(١) "فضيحة لم يقع فى العالم إلى يومنا مثلها " .

وتتصل البيئة الطبيعية بمفهوم الجمال ، فتعدد هذه البيئة ، يتنامى طرديا مع الإحساس بالجمال لدى سكان هذه البيئة ، ويعين على شحذ خيالهم ، مما كان يهيب ، مناخا مواتيا لعملية الإبداع^(٢) . على أن الإبداع يشترط الفردية ، وكان للأندلسيين نصيب وافر فيها ، كما يشترط التشجيع ، وكان للحكام الأندلسيين نصيب وافر كذلك ، والمرابطون وهم - فى الأصل - بدو جفاة نهجوا ، بعد أن تأثروا بالحضارة الأندلسية ، نهج ملوك الطوائف فى تعاملهم مع الأفراد المبدعين .

ويعبر الشعر تعبيرا قويا عن الإبداع ، ونلاحظ أن قرض الأندلسيين له ، كان ظاهرة عامة . ويقرر ابن بسام (ت ٥٤٢ هـ)^(٣) أنه يكاد لا يخلو بلد من بلاد الأندلس من كاتب أو شاعر . وكان معظم أمراء الأسرة الأموية وخلفاتها شعراء ، وهو مالا نلاحظه بالضرورة عند أسلافهم بالشرق ، ويستغرب ابن حيان^(٤) أن الأمير محمدا - على خلاف آبائه قبله وأعقابيه بعده - لم يعز إليه قرض شىء من الشعر ، ويعد مروان بن

١- نقط العروس ، ص ص ٨٣ - ٨٤ .

٢- عن علاقة البيئة الجغرافية بالخيال والفن انظر : جريفت تايلور (محرر) الجغرافية فى القرن العشرين ، ترجمة غلاب وأبى الليل ، القاهرة ، الهيئة العامة للكتاب . ١٩٨٧ ، ج ٢ ، ص ص ١٨٦ - ١٨٧ .

٣- المصدر نفسه ، ق ٣ م ١ ، ص ٣٣ .

٤- المصدر نفسه ، س ٢ ، ص ٢٨٨ .

عبد الرحمن بن مروان بن الناصر (ت حوالي ٤٠٠ هـ) الذي يعرف بالشريف الطليق ، في طليعة شعراء الأندلس المجيدين ^(١).

ونتلمس للطبيعة حضورا قويا في الشعر الأندلسي ، وربما كان وصفها أهم موضوعات هذا الشعر ، وكثيرا ما كان شعراء الأندلس يربطون بين هذا الموضوع وموضوعات أخرى كالغزل ^(٢).

يقول المقرئ ^(٣) :

«إنهم إذا تغزلوا من الورد خدودا ، ومن النرجس عيونا ، ومن الآس أصداغا ، ومن السفرجل نهودا ، ومن قصب السكر قدودا ، ومن قلوب اللوز وسرر التفاح مباسم ، ومن ابنة العنب رضابا»

وقد لعبت البيئة الطبيعية دورا أكبر في نشأة فن جديد من فنون الشعر وهو الموشحات ، وتعد ابتكارا أندلسيا ^(٤) ، ومعظم ما وصل إلينا من موشحات ، يتصل بوصف الطبيعة على نحو مباشر .

على أن الإبداع عند الأندلسيين لم يتوقف عند حد الشعر ، فأنشأ نتلمسه في مجالات أخرى ، ومنها نزوع الأندلسيين إلى المغامرة ، وتنسب

١- لمزيد من التفاصيل راجع : إحسان عباس ، عصر سيادة قرطبة ، ص ١٠٦ - ١١٣ ، عصر الطوائف والمرابطين ، ص ١٩٣ - ٢١٥ : جودت الركابي : في الأدب الأندلسي ، القاهرة ، دار المعارف ١٩٧٥ ، ص ١٢٤ - ١٥٧ .

٢- المصدر نفسه ج ١ ، ص ٣٢٣ .

٣- ابن بسام : المصدر نفسه ، ق ١ م ١ ص ٤٦٩ ، ابن خلدون : المصدر نفسه ، ج ٣ ص ٣٢٨ .

إلى عباس بن فرناس (ت ٢٧٤هـ) ، اختراعات عدة ، كما اشتهر بمحاولته البدائية للطيران ^(١) ، وعرف عن الأندلسيين شغفهم بالرحلة والسفر ^(٢) ، وكانت لهم موانئ مخصوصة فى بلاد المغرب ، وشهرة طبرقة ترجع فى الأساس إلى كثرة ورود مراكبهم إليها ^(٣) . ولدينا قصة أبى حامد الغرناطى (ت ٥٦٥هـ) الذى أمضى سنوات عديدة فى أسفاره ، ولم تمنعه سنه العالية ، من معاودة هذه الأسفار مرة ومرة ^(٤) . ولدينا أيضا قصة الأخوة المغررين من أهل أشبونة Lisboa ومغامراتهم فى بحر الظلمات ، فوصلوا إلى جزائر الخالدات (كانارياس) ثم أبوا إلى بلدهم ^(٥) .

-9-

تتفرد الأندلس ، والحضارة الإسلامية بخصوصية ، ننوه هنا ببعض اصولها ، وهى الأصول الجغرافية .

نشأ عن الموقع الجغرافى المتطرف والمنعزل أن اتخذت الأندلس طريقا خاصا بها عن الدولة الإسلامية العامة ، أفضى - مع أسباب أخرى - إلى استقلال سياسى فى عهد الأموية ، ونزوع دائم إلى الاستقلال السياسى

١- ابن حيان : المصدر نفسه س ٢ ص ٢٧٩ - ٢٨٧ ، المقرئ : المصدر نفسه ج ٣ ، ص ٣٧٤ .

٢- المقدسى : المصدر نفسه ، ص ٣٣٦ .

٣- ابن حوقل : المصدر نفسه ، ص ٧٦ .

٤- راجع الدراسة الإضافية للأستاذ حسين مؤنس فى تاريخ الجغرافية والجغرافيين ، ص ٣٠٣ - ٣٥٧ .

٥- الإدريسى : المصدر نفسه ، ج ٥ ، ص ٥٤٨ - ٥٤٩ ، وانظر أيضا دراستنا لهذه القصة فى كتابنا " عن العرب والبحر " ، القاهرة ، مدهولى ١٩٨٩ ، ص ٢٤ - ٢٥ .

فى عهد ما بعد الأموية ، كما أفضى أيضاً إلى استقلال مذهبى (مذهب مالك رضى الله عنه) ونزوع دائم إلى مناهضة غيره من مذاهب فقهية وعقدية وفلسفات .

على أن الموقع - من ناحية أخرى - كانت له تداعياته ، فى أن صار للجهاد وجوده الناشط على الساحة الأندلسية ، وعلى الساحة الفكرة الاندلسية ، وأعان على أن يشعر الأندلسيون بالتوحد فى جزيرة تميز بطبيعتها إلى التعدد ، لكنه - فى سياق العام - أعان على أن يشعر الأندلسيون بتميزهم عن غيرهم من المسلمين وقمايزهم ، وكان لهذا الشعور الأخير آثاره السلبية فى أوقات الأزمات .

كذلك كان من تداعيات الموقع ، أن وقفت الأندلس - فى نهاية المطاف - وحيدة ، وحان لشمسها أن تغيب .

من ناحية أخرى تأثر النصارى فى دار الحرب بفكرة الجهاد ، ونشأت بينهم جماعات عسكرية دينية ، كان لها حضور واضح فى حركة (الاسترداد) ، بل أنهم تأثروا بفكرة التوحد المذهبى فظهرت عندهم عقيدة شنتياق ، التى صاحبت صراعهم الدائب والدائم مع المسلمين .

داخل حدود الأندلس ذاتها ، جاور المسلمون أقواما يختلفون عنهم من وجوه عدة ، ودخلوا معهم فى علاقات كانت لها نتائجها فى بناهم الاجتماعية والثقافية ، والأهم هو أن هذه العلاقات أدت إلى تنامى العصبية للمكان - أى الوطن - على حساب العصبية للعرق ، مما أسهم فى بزوغ ما ندعوه بالشخصية الأندلسية ، وكان إحساس الأندلسيين العارم بهذه الشخصية سبباً فى النفور الذى وقع بينهم وبين الوافدين

عليهم من بربر العدو ، كما كان أيضاً سبباً فى تكريس مبدأ التسامح مع غير المسلمين ، داخل حدود الأندلس غالباً ، وخارج حدوده أحياناً ، وهىاً الفرصة للتعايش بين القوى السياسية - إسلامية ونصرانية- فى شبه الجزيرة . وجدير بالذكر ان مثلما انتقلت فكرة الجهاد من الأندلس إلى أسبانيا النصرانية ، فان فكرة التسامح انتقلت أيضاً ، ولم يصبح التعصب هو الطابع العام للسياسة الأسبانية إزاء الوجود الإسلامى إلا فى اخريات عهد هذا الوجود ، ويعود التعصب فى بعض أصوله إلى الصليبيين الوافدين بعد إخفاقهم بالشرق .

وإذا كان الموقع المتطرف والمنعزل يدفع الأندلس إلى التوحد ، فان الموضع المتقطع دائماً والمتناقض أحياناً ، كان يدفع الأندلس إلى التعدد ، وترك ذلك أثره فى أن صار الاستقرار الإسلامى منذ بدايته غير متوازن ، مما هيا الفرصة ، لأن تنشأ نواة نصرانية مُعادية فى قاصية الشمال توسعت - بعد - على حساب المسلمين .

الأخطر من ذلك ما أسفر عنه الموضع المتعدد من نزعة محلية ، تحققت داخل المجتمعات الأندلسية الصغيرة ، وأعان عليها ما كانت تواجهه هذه المجتمعات من مشكلات ، وأعان عليها أيضاً صعوبة المواصلات بين بعضها البعض ، وبينها وبين المركز فى قرطبة (أو غيرها) ، وصار لكل مجتمع منها مدينته الحصينة (أو مدنه الحصينة) ، وإليها يتوجه شطر كبير - أو الشطر الأكبر - من انتماء أفراد هذا المجتمع .

كان لهذه المحلية حسناتها فى المنافسة بين المجتمعات الأندلسية فى مجالات شتى من الحضارة ، لكن كان لها سيئاتها فى بروز التعددية

السياسية ، التى عبرت عن نفسها فى ميول حادة إلى الاستقلال فى عهد الأموية ، والاستقلال ذاته فى عهود ما بعد الأموية ، مما أسفر - فى النهاية - عن نتائج فادحة على مسار الإسلام فى الأندلس .

التعدد أيضاً كان له دوره فى أن صارت الشخصية الأندلسية عنيفة وعنيدة ، مما كان يطيل فى أمد الصراعات السياسية ، ويدنى من وقعها فى الوقت نفسه ، ويكرس الميل إلى الشغب على أصحاب السلطان ، وتوزعت الشخصية الأندلسية بين التطرف فى اللهو والتطرف فى الزهد ، مع نزوع واضح إلى تضخيم الذات .

أخيراً فإن الطبيعة الجغرافية بتعددتها ، أعانت على شحذ خيال الأندلسيين ، وتعميق إحساسهم بالجمال ، وحفزهم إلى المغامرة والابتكار ، وهو ما نلمسه فى جوانب شتى من الحضارة الإسلامية بالأندلس ومنجزات هذه الحضارة .

المصادر والمراجع

(أ) المصادر :

ابن الأثير : أبو عبد الله بن أبي بكر القضاعى (ت ٦٥٨هـ) .

١- التكملة لكتاب الصلة (جزئان) تصحيح السيد عزت العطار الحسينى ،
مصر ، ١٩٥٥ .

٢- الحلة السيرة (جزءان) تحقيق حسين مؤنس ، القاهرة ، الشركة العربية
للطباعة والنشر ، ١٩٦٣ .

ابن الأثير : عز الدين أبو الحسن على بن محمد الشيبانى الجزرى (ت ٦٣٠هـ) .

٣- الكامل فى التاريخ (ثلاثة عشر جزءا) بيروت ، دار صادر ، ١٩٨٢ .

الأدرسى : الشريف أبو عبد الله محمد بن عبد الله بن ادريس الحسنى (ت ٥٦٠هـ) .

٤- نزهة المشتاق فى اختراق الآفاق (تسعة أجزاء) تحقيق تشيولوى ، وآخرين .
روما - نابولوى ، ١٩٧٠ - ١٩٨٤ .

ابن اياس : محمد بن أحمد بن اياس الحنفى (ت بعد ٩٣٨هـ) .

٥- بدائع الزهور فى وقائع الدهور (ستة مجلدات) تحقيق محمد مصطفى ،
القاهرة ، الهيئة العامة للكتاب ، ١٩٨٤ .

ابن بسام : ابو الحسن على بن بسام الشنترىنى (ت ٥٤٢هـ) .

٦- الذخيرة فى محاسن اهل الجزيرة (ثمانية مجلدات) تحقيق إحسان عباس ،
بيروت ، دار الثقافة ، ١٩٧٩ .

ابن بشكوال : أبو القاسم خلف بن عبد الملك (ت ٥٧٨هـ) .

- ٧- كتاب الصلة (قسمان) ، القاهرة ، الدار المصرية للتأليف والترجمة، ١٩٦٦ .
- البكرى : أبو عبيد الله بن عبد العزيز بن محمد بن أيوب بن عمرو البكرى (ت ٤٨٧هـ) .
- ٨- جغرافية الأندلس وأوروبا ، من كتاب المسالك والممالك ، تحقيق عبد الرحمن على الحجى ، بيروت ، دار الإرشاد للطباعة والنشر ١٩٦٨ .
- ابن تغرى بردى: أبو المحاسن يوسف بن تغرى بردى الأتابكى (ت ٨٧٤هـ) .
- ٩- النجوم الزاهرة فى ملوك مصر ، والقاهرة ، (ستة عشر جزءا) القاهرة ، دار الكتب المصرية ، ١٩٢٩ .
- الثعالبي : أبو منصور عبد الملك بن محمد بن اسماعيل النيسابورى (ت ٤٢٩هـ) .
- ١٠- يتيمة الدهر . تحقيق محمد محى الدين عبد الحميد ، القاهرة ، مكتبة الحسين التجارية ، ١٩٤٧ .
- ابن حزم : أبو محمد على بن أحمد بن سعيد (ت ٤٥٦هـ) .
- ١١- الاحكام فى أصول الأحكام (ثمانية أجزاء) تصحيح أحمد محمد شاکر ، القاهرة ، الخانجى ، ١٣٤٥هـ .
- ١٢- جمهرة أنساب العرب ، ط ٣ ، تحقيق عبد السلام هارون القاهرة، دار المعارف، مصر ، ١٩٧١ .
- ١٣- طوق الحمامة فى الألفة والألاف ط ٣ ، تحقيق الطاهر أحمد مكى ، القاهرة ، دار المعارف ، ١٩٨٠ .
- ١٤- الفصل فى الملل ، والأهواء والنحل (خمس أجزاء) تحقيق محمد ابراهيم نصر ، عبد الرحمن عميرة، جدة ، عكاظ ، ١٩٨٢ .

- ١٥- نقط العروس فى تواريخ الخلفاء ، تحقيق شرقى ضيف ، فصله فى مجلة كلية الآداب ، جامعة فزاد الأول ، م١٣ ، ج٢ ، ديسمبر ١٩٥١ .
- الحميدى : أبو عبد الله محمد بن أبى نصر فتح بن عبد الله الأزدي (ت٤٨٨هـ) .
- ١٦- جذوة المقتبس فى ذكر ولاية الأندلس ، القاهرة ، الدار المصرية للتأليف والترجمة ، ١٩٦٦ .
- الحميرى : أبو عبد الله محمد بن عبد الله بن عبد المنعم (ت أواخر القرن الثامن الهجرى) .
- ١٧- الروض المعطار فى خبر الأقطار . تحقيق إحسان عباس . بيروت، مكتبة لبنان ، ١٩٨٤ .
- ابن حوقل: أبو القاسم محمد بن على النصيبى (ت٣٦٧هـ) .
- ١٨- صورة الأرض (المسالك والممالك والمغاز والممالك) بيروت مكتبة الحياة ، ١٩٧٩ .
- ابن حيان : أبو مروان حيان بن خلف بن حسين بن حيان (ت ٤٧٩هـ) .
- ١٩- المقتبس من أنباء هل الأندلس .
- السفر الثانى - تحقيق على مكى - بيروت ، دار الكتاب العربى ١٩٧٣ .
- السفر الثالث - تحقيق اسماعيل العربى ، المغرب ، دار الآفاق الجديدة، ١٩٩٠ .
- السفر الخامس - تحقيق شالميتا ، صبح ، كورينطى ، مدريد ، المعهد الاسبانى العربى للثقافة ، ١٩٧٩ .
- قطعة من عهد الحكم المستنصر ، تحقيق عبد الرحمن على الحجى بيروت ، دار الثقافة ، ١٩٦٥ .

ابن خاقان : أبو نصر الفتح بن محمد بن عبد الله بن خاقان القيسى (ت ٥٢٩هـ) أو (٥٣٥هـ) .

٢٠- مطمح الأنفس ، تحقيق محمد علي شوابكة ، بيروت ، دار عمار ١٩٨٣ .

الخشنى : أبو عبد الله محمد بن حارث بن أسد القيروانى (ت ٣٦١هـ) .

٢١- قضاة قرطبة ، القاهرة ، الدار المصرية للتأليف والترجمة ١٩٦٦

ابن الخطيب : لسان الدين أبو عبد الله محمد بن عبد الله السلماى (ت ٧٧٦هـ) .

٢٢- الاحاطة فى أخبار غرناطة (أربعة أجزاء) ط ٢ ، تحقيق محمد عبد الله عنان، القاهرة الخالجي ، ١٩٧٣ - ١٩٧٧ .

٢٣- تاريخ أسبانيا الإسلامية أو كتاب أعمال الأعلام فيمن هوى قبل الاحتلال من ملوك الإسلام ج ٢ ، تحقيق أ . ليفى بروفنسال ، بيروت دار المكشوف ، ١٩٥٦ .

ابن خلدون : أبو زيد ولى الدين عبد الرحمن بن محمد بن محمد بن محمد بن خلدون الحضرمى (ت ٨٠٨هـ) .

٢٤- مقدمة ابن خلدون (ثلاثة أجزاء) ط ٣ تحقيق على عبد الواحد وافى ، القاهرة ، دار نهضة مصر ، ١٩٧٩ .

ابن خلكان : أبو العباس شمس الدين أحمد بن محمد بن أبى بكر بن خلكان (ت ٦٨١هـ) .

٢٥- وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان (ستة أجزاء) تحقيق محمد محى الدين عبد الحميد ، القاهرة ، النهضة المصرية ، ١٩٤٨ .

ابن دراج : أحمد بن محمد بن دراج القسطلى (ت ٤٢١هـ) .

٢٦- ديوان ابن دراج القسطلی ، تحقيق محمود علی مکی ، دمشق المكتب الاسلامی ، ١٩٦١ .

ابن سعيد : علی بن موسى بن محمد بن عبد الملك بن سعيد (ت ٦٨٥هـ).

٢٧- المغرب فی حلی المغرب (جزءان) ط ٣ ، تحقيق شوقي ضيف القاهرة ، دار المعارف ، ١٩٧٨ .

صاعد الأندلس : صاعد بن أحمد بن عبد الرحمن بن محمد بن صاعد التغلبي (ت ٤٦٢هـ) .

٢٨- طبقات الأمم ط ١ ، تحقيق حياة بو علوان ، بيروت ، دار الطليعة للطباعة والنشر ، ١٩٨٥ .

ابن عبد الملك المراكشي : أبو عبد الله محمد بن محمد بن عبد الملك الأنصاري الأوسي المراكشي ، (ت هـ)

٢٩- الذيل والتكملة لكتابي الموصول والصلة ، تحقيق محمد بن شريفة ، بيروت ، دار الثقافة .

ابن عذاري : أبو محمد عبد الله بن محمد المراكشي (ت ٧١٢هـ) .

٣٠- البيان المغرب فی أخبار الأندلس ، والمغرب (أربعة أجزاء) تحقيق ليفي بروفنسال ، كولان ويشي ميراندا ، أعاد نشره إحسان عباس ، بيروت ، دار الثقافة ، ١٩٦٧ .

العذري : أحمد بن عمر بن أنس المعروف بابن الدلائلي (ت ٤٧٨هـ)

٣١- نصوص عن الأدلس من كتاب ترصيع الأخبار وتنويع الآثار ، تحقيق عبد العزيز الأهراني ، مدريد ، معهد الدراسات الإسلامية ، ١٩٦٥ .

- ابن العوام : أبو زكريا يحيى بن محمد بن العوام .
- ٣٢- الفلاحة (جزءان) نشر بانكيري ، مدريد ١٨٠٢ .
- ابن الغرضي : أبو الوليد عبد الله محمد بن يوسف الأزدي (ت ٤٠٣هـ) .
- ٣٣- تاريخ علماء الأندلس (جزءان) الدار المصرية للتأليف والترجمة ، ١٩٦٦ .
- ابن القوطية : أبو بكر محمد بن عمر بن عبد العزيز (ت ٣٦٧هـ) .
- ٣٤- تاريخ افتتاح الأندلس ، تحقيق إبراهيم الأبياري القاهرة دار الكتب الإسلامية ، ١٩٨٢ .
- مجهول : ٣٥- أخبار مجموعة في فتح الأندلس ، نشر لافوينتي الكتترا مجريط . مطبع ريدنير ، ١٨٦٧ .
- المراكشي : محي الدين عبد الواحد بن علي التميمي (ت بعد ٦٢١هـ) .
- ٣٦- المعجب في تلخيص أخبار المغرب ، تحقيق محمد سعيد العريان، محمد العربي العلمي ، القاهرة ، المكتبة التجارية الكبرى ، ١٩٤٩ .
- المسعودي : أبو الحسن علي بن الحسين بن علي (ت ٣٤٦هـ) .
- ٣٧- مروج الذهب (أربعة أجزاء) تحقيق محمد محي الدين عبد الحميد ، بيروت ، دار المعرفة ، ١٩٨٣ .
- المقدسي : أبو عبد الله محمد بن أحمد البشاري (ت حوالي ٣٩٠هـ)
- ٣٨- احسن التقاسيم في معرفة الأقاليم ، لندن ، أبريل ١٩٠٦ .
- المقري : شهاب الدين أحمد بن محمد التلمساني (ت ١٠٤١هـ) .
- ٣٩- نفح الطيب بن غصن الأندلس الرطيب (ثمانية أجزاء) تحقيق إحسان عباس، بيروت دار صادر ، ١٩٦٨ .

المقريزى : تقى الدين أحمد بن على بن عبد القادر بن محمد (ت ٨٤٥هـ) .

٤- السلوك فى معرفة دول الملوك (أربعة أجزاء) تحقيق محمد مصطفى زيادة ، سعيد عاشور ، القاهرة ، دار الكتب .

النباهى : أهر الحسن بن عبد الله بن الحسن النباهى المالقى (ت أواخر القرن الثامن الهجرى) .

٤١- المرقبة العليا فيمن يستحق القضاء والفتيا ، نشر ليفى بروفنسال ، القاهرة، دار الكتب المصرى ، ١٩٤٨ .

(ب) المراجع باللغة العربية :

الأهوانى : عبد العزيز : ١- الزجل فى الأندلس ، القاهرة ، معهد الدراسات العربية العالية ، ١٩٥٧ .

تايلور : جريفت (محرر) : ٢- الجغرافية فى القرن العشرين (جزءان) ، ترجمة محمد السيد غلاب ، محمد مرسى أبو الليل ، القاهرة الهيئة العامة للكتاب ، ١٩٨٧ .

جونثالث بالنثيا : انخل : ٣- تاريخ الفكر الأندلسى ، ترجمة حسين مؤنس ، القاهرة النهضة المصرية ، ١٩٥٥ .

حمدان : جمال : ٤- بين أوروبا وآسيا ، دراسة فى النظائر الجغرافية القاهرة ، عالم الكتب ، ١٩٧٣ .

دى لوئينا : لويس سيكر : ٥- وثائق عربية غرناطية من القرن التاسع الهجرى ، الخامس عشر ميلادى ، مدريد ، معهد الدراسات الإسلامية ١٩٦١ .

الركابى : جودت : ٦- فى الأدب الأندلسى ، ط٤ ، القاهرة ، دار المعارف ١٩٧٥ .

- ٨- تاريخ الأدب الأندلسي ، عصر الطوائف والمرابطيين ص ٧ ، بيروت ، دار الثقافة ، ١٩٨٥ .
- عنان : محمد عبد الله : ٩- دولة الإسلام في الأندلس ، (أربعة أجزاء) القاهرة ، الخانجي ، ١٩٦٩ .
- كحيلة : عبادة عبد الرحمن : ١٠- أندلسيات ، القاهرة ، مدهولى ، ١٩٨٩ .
- ١١- عن العرب البحر ، القاهرة ، مدهولى ، ١٩٨٩ .
- ١٢- المعاهدون في الأندلس ، أطروحة لدرجة الدكتوراة ، كلية الآداب ، جامعة القاهرة ، غير منشورة (تحت الطبع الآن بأسم تاريخ النصارى في الأندلس) .
- ليفى بروفنسال : (أ) : ١٣- الإسلام في المغرب ، والأندلس ، ترجمة السيد عبد العزيز سالم ، محمد صلاح الدين حلمي ، القاهرة نهضة مصر ، ١٩٥٦ .
- ١٤- الحضارة العربية في أسبانيا ، ط ١ ، ترجمة الطاهر أحمد مكى ، القاهرة ، دار المعارف ، ١٩٧٩ .
- مكى : الطاهر أحمد : ١٥- ملحمة السيد ، دراسة مقارنة ، ط ٢ ، القاهرة ، دار المعارف ، ١٩٧٩ .
- مؤنس : حسين : ١٦- تاريخ الجغرافية والجغرافيين في الأندلس ، مدريد معهد الدراسات الإسلامية ، ١٩٦٧ .
- ١٧- فجر الاندلس ، القاهرة ، الشركة العربية للطباعة والنشر ، ١٩٥٩ .
- هيكل : أحمد : ١٨- الأدب الأندلسي من الفتح إلى سقوط الخلافة ط ٧ ، القاهرة ، دار المعارف ١٩٥٩ .

C . References in Foreign Languages :

Branigan , J . J & Jarrett , H . R :

1- The Mediterranean Lands . 2nd edition . London , Macdonald & Evans , 1975 .

2- Cambridge economic history of Europe (6 vols) , 1971 .

Castro , Ame`rico :

3- Espana en su historia , Cristianos , Moros Y Judios . Buenos Aires , Editorial Losada , 1948 .

Dozy , R :

4- Recherches sur l'histoire et la litte' rature de l'Espagne Pendant le moyen age (2 vols) t roisième edition Leiden , Brill , 1881 .

Imamuddin , S . M . :

5- Some aspects of the Socio - Economic and Cultural history of Mos- lem spain . Leiden , Brill , 1965 .

Levi - Provencal, E .

6- Histoire de L'Espagne Musulmane (3 Vols) Paris , Leiden , Brill , 1965 .

Leivermore , H . V :

7- The Origins of Spain and Portugal . London , George Allen & Un- win , 1971 .

Mene'dez Pidal , Ramon :

- 8- The Spaniards in their history , trans by Walter Starkie . London ,
Hollis & Carter , 1950 .

O'Callaghan , J . F :

- 9- A history of Medieval Spain . Cornell Univ . Press , 1975 .

Simonet , D . Francisco Javier :

- 10- Historia de Los Mozarabes de Espana . Madrid 1897 - 1903 .

دوريات :

العبادي : أحمد مختار

- ١- الإسلام في أرض الأندلس، أثر البيئة الأوربية.مجلة عالم الفكر، م ١٠ ع ٢ .
١٩٧٩ ، ص ٥٩ - ١١٠ .

مكي : محمود على

- ٢- التشيع في الأندلس . صحيفة المعهد المصري للدراسات الإسلامية في مدريد
م ٢ ع ١ ، ١٩٥٤ ، ص ٩٣ - ١٤٩ .

كتب أخرى للمؤلف

- ١- صقر قريش ، عبد الرحمن الداخل : القاهرة ، دار الكاتب العربى ١٩٦٨
(اعلام العرب ٧٦) .
- ٢- عن العرب والبحر ، القاهرة ، ١٩٨٩ .
- ٣- أندلسيات ، القاهرة ١٩٨٩ .
- ٤- تاريخ النصارى فى الأندلس ، القاهرة ١٩٩٣ .
- ٥- الزُط والأصول الأولى لتاريخ الفجر ، القاهرة ، ١٩٩٤ .

رقم الإيداع ٩٦/٢٦١٦

الترقيم الدولي 0 - 42 - 5487 - 977 I.S.B.N

طبع بمطابع دار روتابرينت



للدراستات و البحوث الانسانية والاجتماعية
FOR HUMAN AND SOCIAL STUDIES

To: www.al-mostafa.com